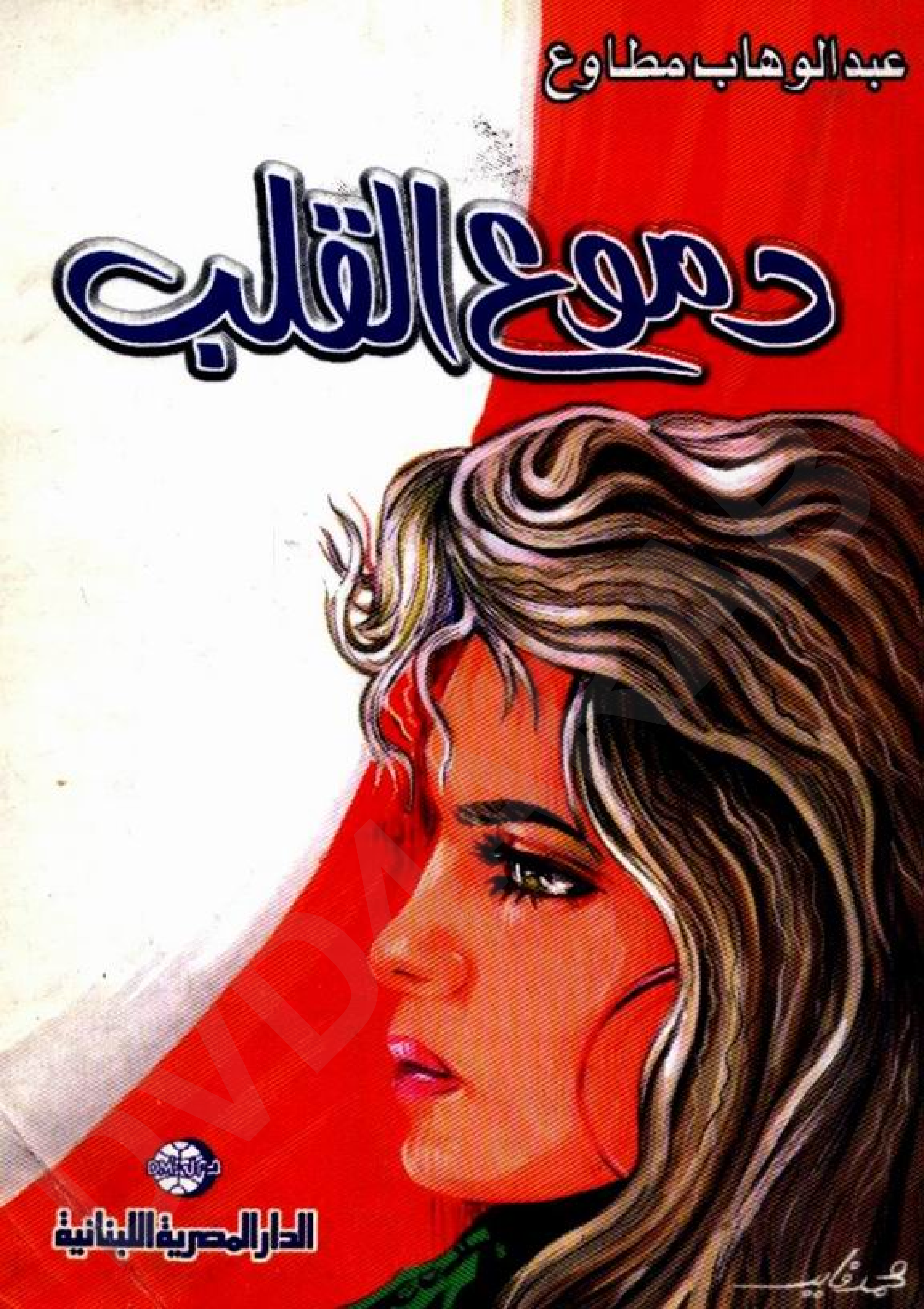

عبد الوهاب مطاوع
دموع القلب
الدار المصرية اللبنانية

الناشر : **الدار المصرية اللبنانية**
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٣٠٣٢ / ٩٩
الترقيم الدولي : 977 - 270 - 491 -9
جمع وطبع : **عربية للطباعة والنشر**
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٢٥٦٠٩٨ ـ ٣٢٥١٠٤٣

الطبعة الأولى : شوال ١٤١٩ هـ ـ فبراير ١٩٩٩
الرسوم الداخلية والغلاف : محمد فايد

عبدالوهاب مطاوع

دموع القلب

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾

صدق الله العظيم



بقلم : مختار السويفى

حين يبلغ الحزن مداه فى النفس الانسانية ، يقطر القلب دموعًا حزينة مؤسية . . ودموع القلب أكثر حرقة من دموع العين !

وها هى الدنيا من حولنا وقد كادت أن تمتلىء بهموم الحزانى الذين أضنتهم تصاريف الحياة . . حتى أصبحنا نتساءل : ماذا جرى للسلوكيات الانسانية بين الناس ؟ . . ولماذا تعقدت العلاقات الأسرية بين من تفترض فيهم أواصر المحبة والسكينة والتراحم وكل سمات العلاقات الطيبة ؟ .

يقول الحكماء منذ أقدم العصور وحتى الآن : هكذا هى أحوال الدنيا . . فيها سبل الخير إلى جانب سبل الشر ، وبين السبيلين صراع سيظل أبديا حتى نهاية الحياة ، حين تقوم القيامة ويتحقق يوم للحساب لا ريب فيه .

وحين يفاجأ الانسان بهبوب رياح الأحزان لتعصف بحياة كان يظنها

مستقرة وسعيدة ، يختار الانسان فيما يتحتم عليه أن يفعله ليواجه تلك العواصف ويتصدى لها .

ولكن الناس فى تلك المواجهات الصعبة ينقسمون وتختلف مواقفهم بين إنسان وإنسان .

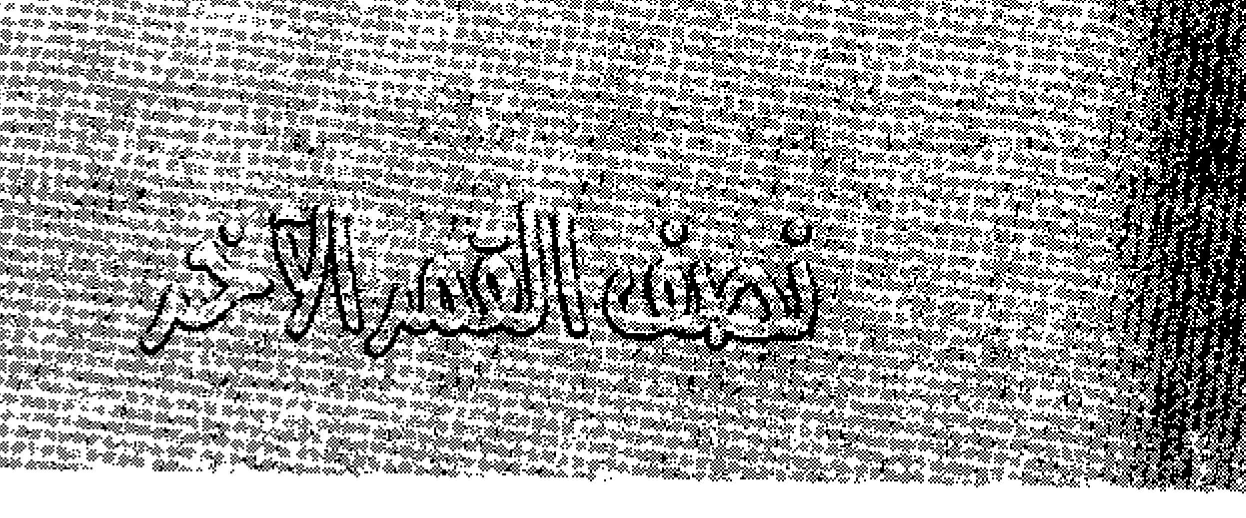
هناك من يستسلم لتلك الأحزان ويعتبرها قدرًا مقدرًا لا فكاك منه ولا هروب ، فيتعايش مع أحزانه إلى أن تقطر من قلبه الدموع .

وهناك من يواجه متاعب الحياة ومشاقها بتصرفات قد تتصف بالظلم أو الحماقة ، فيعقبها الندم وتزداد أحزانه بهموم جديدة نتيجة لما فعل .

وهناك إنسان يحاول أن يتخطى تلك المتاعب والمشاق بأن يتلمس نصيحة من انسان آخر محل ثقته ، فيسر إليه بأسرار عذابه ، طلبًا للمعونة فى حل ما تعرض له من مشاكل، لعله يجد فى تلك النصيحة طوق نجاة يساعده فى مواجهة طوفان الأحزان بأمواجه العالية .

وفى هذا الكتاب مجموعة من رسائل المشاكل الأسرية العاتية التى طلب مرسلوها النصح فى كيفية مواجهتها ، فعقب عليها الاستاذ الكبير عبد الوهاب مطاوع بما أملاه عليه ضميره من حلول صادقة ، صاغها بأسلوبه الانسانى العميق ، داعيًا الله لهم بأن تكون تلك الحلول عونًا لهم فى انفراج أزماتهم ، وإلهامًا لهم فى تحمل مشاق الحياة وصعابها ، وأملاً فى تجفيف ما يقطر فى قلوبهم من دموع .

مختار السويفى



أنا زوج السيدة كاتبة رسالة «الثمن الغالى» التى تحذر فيها من أن زمن بكاء المرأة على خيانة زوجها لعهد الوفاء لها ، وزواجه من غيرها قد انتهى ، وأن المرأة لا ينبغى لها أن تقبل الأمر الواقع ، إذا تزوج غيرها ، ولاأن تصبر عليها ، ولا أن تعيش على ذكرى الخيانة بعد طلاقها منه ؛ لأن المرأة تستطيع — كما تقول وكما فعلت — أن تحب وتتزوج مرة أخرى ، ولو كانت فى الستين .

ولست أريد أن أظلم كاتبة الرسالة ، فأجزم أنها زوجتى السابقة ؛ لأن قصص الحياة كثيراً ما تتشابه ، ولكن هذا لا يعنينى كثيرًا ؛ لأنى لم أكتب هذه الرسالة دفاعًا عن نفسى ، ولا ردًّا على رسالتها ، وإنما كتبتها لكل زوجة تحرص على زوجها ، ولا يسعدها أن تفاجأ بزوجها يهرب من «جنتها» إلى «جحيم» امرأة أخرى ، أو حجر «حية رقطاء» كما تقول كاتبة الرسالة عن زوجتى الحالية .

وعلى أية حال . . فإنى لم أعجب لرسالتها ، ولكنى عجبت أشد العجب لعبارة واحدة فيها كتبتها . وهى تتحدث عن قصة زواجنا فقالت «ومضت بنا رحلة الحياة آمنة وسعيدة » ، وقد دفعتنى هذه العبارة لأن أسرد عليك جوانب قليلة جدًّا من هذه الحياة «الآمنة السعيدة» ، التى عشتها معها ، فمما يقرب من عشرين عاماً التى عشتها معها فإن الأيام التى تصالحنا خلالها ، وكنا فيها على وفاق ، إذا جمعتها الآن فإنها بحساب الزمن لا تكمل أكثر من عام ، أو عام ونصف العام على أكثر تقدير .

أما باقى الرحلة «الآمنة» . . . فقد كان كله خصامًا وعنادًا ، ولقد عيرتنى زوجتى السابقة فى بداية حياتى معها بقلة دخلى ، مع إننى قد تزوجت بكل الإمكانيات ، التى كانت متاحة وقتها ، وفى شقة فاخرة مجهزة بكل الكماليات ، وكانت لى سيارة ، ورغم ذلك فقد تطاولت على بأننى لست رجلاً ؛ لأنى لست قادراً على تلبية كل رغباتها ، وقد عاشت معى عشرين عامًا ساخطة على حياتها ، وكل حركة ، وكل إشارة قد تحرق دمها فجأة فتغضب ، وإذا غضبت لم يفارقها الغضب قبل أسبوع على الأقل ، وبعد أن أكون قد كللت من استرضائها والاعتذار إليها ، أياً كان سبب الغضب . كما تطاولت على عائلتى ، ابتداء من والدى يرحمه الله إلى شقيقاتى جميعاً ، حتى قاطعنى الجميع ، وإن كنت حرصت على أن أصلهم فى السر ، وعلى ألا ينقطع برى بأهلى رغمًا عنها .

وكنت فى بداية حياتنا ، أتلهف على أن أسمع منها كلمة رقيقة ، أو

كلمة مشاركة لى فى فرحى أو حزنى وتعبى ، فلم أجد منها إلا الرغبة فى إسعاد نفسها فقط ؛ لأنها محور الكون بالنسبة إليها ، ويعلم الله أننى لم أدخر جهدًا ولا مالاً فى محاولة إسعادها وإرضائها . ومع ذلك فلم تكن تدوم هذه السعادة مهما فعلت ، إلا ساعات أو أيامًا على أكثر تقدير، ثم يصدر عنى تصرف كان يجب أن يصدر من وجهة نظرها أيضًا ، فتنقلب ملامحها ، وتغضب ، وتنفجر البراكين فى بيتنا الآمن السعيد ، وأحاول أن أعرف سبب ثورة البركان بكل وسيلة ، فلا أعرفه إلا بعد أيام ، وأحياناً بعد أسابيع !

ولقد حاولت معها فى سنواتنا الأولى معًا الإصلاح بالحب والعتاب ، فلم تزدد إلا عنادًا وغضبًا ، وحاولت بهجرها داخل البيت فلم تبال ، ثم أصبحت بعد بضع سنوات لا انتظر منها حبًّا ولا مودة ، ولا أطمع إلا فى أن تبتعد عنى بأذاها فقط . . وأصبحت أواجه براكين غضبها بالصمت ، والأعاصير تضطرب فى أعماقى وأكظمها ؛ لكى أعفى أبنائى من هذا النكد بقدر المستطاع .

وهى تقول فى رسالتها إنها قد تركت لى الأبناء ؛ عقابًا لى على زواجى من غيرها ، حين تمسكت بالطلاق؛ لكى أتحمل تبعات فعلتى الشنعاء، والحقيقة هى أن مسئولية هؤلاء الأبناء ليست جديدة على ؛ لأننى تحملتها منذ كانوا أطفالاً صغارًا . . فقد كنت أنا الذى يوقظهم من نومهم فى الصباح ، ثم أعد لهم الإفطار ، وأعينهم على ارتداء ملابسهم ، وأعد لهم ساندوتشات المدرسة، وأقوم بتوصيلهم إلى

مدارسهم وهى مازالت نائمة ، ثم أرجع بهم من المدرسة ظهرًا أيضًا لاستذكر لهم دروسهم فى ساعة راحتى من العمل ، لكى ترتاح حتى بعد عودتها من عملها ، وأرجع إلى عملى بعد الظهر ، وتبدأ هى العناية بهم ، وأعود ليلاً لأجد التكشيرة الهائلة مستقرة على وجهها ، وأسألها عما بها فلاتجيب ، حتى أصبحت من كثرة التكرار، أرجع فى الليل ، وألقى عليها تحية المساء ولا انتظر ردًا منها ، ثم أتناول طعام عشائى وحدى وأدخل غرفة مكتبى ، التى أصبحت ملاذى الوحيد فى هذا البيت ؛ لأقرأ بعض الوقت .

وهكذا مضت حياتى معها عشرين عامًا ، حتى كنت أناجى ربى ، وأقول له سبحانك ربى ، أعطيتنى كل شيء من أسرة ومال ومركز ، وحب كل من عرفنى ، فلماذا حرمتنى يارب مما أعطيته لغيرى ، وهو «السكن» إلى زوجة ، أجد لديها المودة والرحمة ، فعشت مع زوجة لم أسكن إليها ، ولم تسكن إلىَّ ، وفى سنواتنا الأخيرة معًا ، أصبح دعائى لربى بعد أن تعبت ، ولم يعد بمقدورى أن أتحمل المزيد ، هو اللهم عوضنى عنها بخير منها ، إن لم يكن فى الدنيا ففى الآخرة ، وأنا الذى لم يرفع بصره يومًا إلى امرأة أجنبية عنه ، ولم أكن صاحب نزوة فى يوم من الأيام ، على كثرة ما حرمت منه كزوج ، وأنا فى عنفوان شبابى .

ومع أنى أعرف كراهيتك لما سوف أقوله لك . . فلقد عوضنى الله عنها بزوجة ، ترعى الله ، وترعى حقوق زوجها ، وعرفت لأول مرة فى حياتى نعمة السكن ، التى شرع الله الزواج من أجلها . . وأنا الآن أنظر

إلى هذه «الحية الرقطاء» ، كما أسمتها زوجتى السابقة ، فأشكر ربى على ما أعطانى . . فهى الزوجة التى إذا نظرت إليها سرتنى ، وإذا أمرتها أطاعتنى ، وهى الزوجة التى لم أرها يومًا ما ساخطة أو متذمرة . . نعم إنها قد تكون أقل من زوجتى السابقة فى الجمال والعائلة ، ولكنه شتان بين جمال الشكل ، وبين جمال الطبع والروح .

وأما أبنائى الصغار منها ، التى تقول زوجتى السابقة إننى أتحمل الآن عبئهم وهمهم فى مثل سنى الآن ، فى حين تنتقل هى كالفراشة مع زوجها الجديد بين أنحاء الأرض فى رحلات سياحية خالية من الأعباء . . أما أطفالى هؤلاء فهم ليسوا عبئاً على من عاش حياته الدنيا ، التى تهون متاعبهم ، إلى جوار زوجة تهوّن على زوجها كل مصاعب الدنيا .

وأما أبنائى الكبار من زوجتى السابقة ، فهم معى كل يوم ، وقد تفهموا الوضع ، ورضوا الآن وإن كانوا قد تأثروا فى البداية ، وأما زوجتى السابقة فلم أحاول يوماً أن أجرح مشاعرها بإظهار سعادتى بزوجتى الجديدة أمامها ، وقد كنت أتمنى فعلاً ألا تفارقنى زوجتى السابقة ، ليس حبًّا فيها ، وإنما من أجل أولادى لكيلا أسبب لهم جرحًا ، وأما سعادة زوجتى السابقة بزوجها الحالى ، فيعلم الله أننى لا أكره لها هذه السعادة ، ولا أحمل لها أية ضغينة أو حقدًا ، والله سبحانه وتعالى هو القادر على إسعاد عباده ، حين يشاء ، وهو القائل جل شأنه «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته» صدق الله العظيم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

ربما تكون العلاقة الزوجية ، هى العلاقة الإنسانية الوحيدة ، التى يندر أو يتعذر أن تتطابق رواية طرفيها عنها فى حالة الخلاف ، بل حتى أيضًا فى حالة الوفاق ! فالعلاقة العاطفية يمكن إذا اختلف طرفاها أن يختلف تقدير أحدهما عن الآخر بعض الشىء ، لأسباب الخلاف ، ولكنهما سوف يتفقان غالباً فى الوقائع الأساسية لما جرى بينهما ، فتحس حين تسمع لكليهما أنك تسمع القصة نفسها مع اختلاف طفيف فى بعض التفاصيل . وربما يكون الأمر كذلك أيضًا فى علاقة الصداقة ، أو علاقة الأخوة ، أما فى العلاقة الزوجية . . فيندر حتى فى حالة الخلاف العابر ، أن تتطابق رواية طرفيها عنها أو حتى تتقارب !

ولا غرابة فى ذلك لأنها علاقة متشابكة ومتداخلة ومركبة ، ومختلطة بمشاعر إنسانية ، واعتبارات عائلية واجتماعية مختلفة ، ولأن كل طرف من طرفيها قد يميل غريزيًّا للرثاء لنفسه ، واعتبار شخصه شهيدًا ، أو مجنيًا عليه من الطرف الآخر . . ولعل فى قصة الرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه مع السيدة عائشة ، حين اختلفا فى بعض ما يختلف حوله الأزواج ، ما يؤكد ذلك ، فلقد احتكما إلى أبيها أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد قبلت السيدة عائشة بأبيها حكمًا ، وهى كارهة ومتوجسة ؛ لأنه كما قالت للرسول الأمين : هذا رجل لن يحكم لى عليك !

ثم بدأ الرسول عليه السلام يروى الخلاف ، فإذا بالسيدة عائشة تقاطعه ، بغير وعى ، هاتفة :

اقسط يارسول الله ! أى اعدل فى روايتك ، فانتفض الصديق أبو بكر مغضبًا ، وضرب ابنته فشج أنفها ، وهو يقول لها متعجباً : ألرسول الله تقولين له هذا ، وانزعج الرسول الكريم لما أصاب زوجته ، وفزع إليها يغسل جرحها ، ويحنو عليها ، وهو يقول لصاحبه جزيناً وعاتبًا : ما دعوناك لمثل هذا .

إذن نتصور اختلاف الرواية بين الزوجين عن أى خلاف ينشأ بينهما ، من طبائع الأمور تمامًا كما يبدو لنا نصف القمر المضىء مختلفاً تماماً عن النصف عن النص الآخر المظلم ، مع أنهما متماثلان فى الواقع . .

ولو لم يكن الأمر كذلك أنطقت الغريزة الأنثوية السيدة عائشة بما قالت لزوجها الكريم ، وهى تعرف جيدًا أنه من لا ينطق عن الهوى ، وأنه وليس مثله من يحرف روايته لينتصر لنفسه ، وإنما هى دائمًا إشكالية اختلاف زاوية الرؤية ، التى يرى منها كل طرف القصة ، ويرويها وفقًا لذلك ، ولو كانت الروايات عما يجرى بين الأطراف المختلفة تتماثل وتتطابق فى كل أمور المعاملات الحياتية ، لما احتجنا إلى قضاء ، ولا إلى شهود عدول ينتصرون لطرف ، ويدينون طرفاً آخر . .

وللأديب الفرنسى ميشيل مونتانى كلمة حكيمة بهذا الشأن يقول فيها :

« قلما يتفق اثنان فى الحكم على أمر من الأمور اتفاقاً تامًا كاملاً مهما تشابه رأياهما ، ولو أن حادثاً قد حدث فى الطريق ، ورآه أشخاص مختلفون ، ثم طلب من كل منهم أن يصفه ، لاختلفوا فى تفاصيل المرئيات ؛ حتى ليظن المرء أن بعضهم يكذب عمدًا ، ولا كذب هناك فى الحقيقة ، وإنما يختلف نظر كل منهم للأمور عن نظر غيره بعض الاختلاف ، إلا إذا كان هناك إيحاء أو رغبة فى الاتفاق لمأرب ما !» .

ولهذا فلقد قلت مراراً إننى لا أجلس مجلس القضاء من أحد ؛ لأننى إن فعلت ذلك ، فلابد لى من سماع الطرفين معًا ، والتحقق من صدق ما يرويه كل منهما ، قبل أن أحكم لأحدهما علىّ الآخر ، وإننى إنما أقدم مشورتى لمن يطلبها منى ، على ضوء ما يعرضه علىّ هو نفسه من وقائع ، فإن صدقنى فلقد حصل على الرأى الصائب فى مشكلته ، أو ما أتصوره كذلك من وجهة نظرى وفقاً لاجتهادى المحدود ، وإن حجب عنى بعض جوانب الحقيقة ، فما حكمت له ، أو على الطرف الآخر ، حين صارحته برأيى، وإنما حكمت على النموذج البشرى ، الذى صورته لى روايته ، وليس على شخص بعينه .

وفى قصتك مع زوجتك السابقة إذا كانت هى حقاً كاتبة الرسالة ، التى تتحدث عنها ، وليس غيرها ؛ لأن قصص الحياة تتشابه بالفعل كثيرًا ، فلقد روت لى قصة زواجك المفاجىء ، وأنت فى الثانية والخمسين من عمرك ، وهى فى الثامنة والأربعين من عمرها ،وبعد تخرج ابنكما الأكبر وابنتكما الوسطى ، ولم يبق بالتعليم الجامعى إلا الابن الأصغر،

وأنك تزوجت من فتاة لم يسبق لها الزواج عمرها ٣٥ عاماً ، وكيف فوجئت هى بهذا الزواج فى هذه المرحلة من عمرها ، وبعد أن شارفت سفينة الأسرة على بلوغ شاطىء الأمان ، ودون أية مقدمات . . وبلا أية إشارة فى رسالتها إلى تعاستك الزوجية معها . . أو خلافات سابقة بينكما .

وكيف أنك أردت منها أن تقبل بالأمر الواقع ، وتواصل الحياة معك حرصًا على الأبناء ، وعلى شكل الأسرة الاجتماعى ، فلما رفضت ذلك ، وأصرت على الطلاق ، أملت أنت أن تظل بلا زواج ، عسى أن ترجع إليك بعد قليل ، وبعد أن يهدأ غضبها واستمرارك فى زواجك الجديد ، فلم تفعل هى ذلك أيضًا، وارتبطت بغيرك وتزوجته وسعدت بحياتها معه كما تقول ، وكتبت تقول إنها الآن لم تعد تشعر تجاهك بالحقد وإنما بالرثاء حين تراك ، وأنت تتحمل عبء أطفال صغار من زوجتك الجديد، ومدارس ، وحضانة ، واستذكار دروس ، وعلاج لرضع صغار، وأنت فى هذه المرحلة من عمرك .

هذا هو مضمون رسالتها ، التى أنهتها بتحذيرها الختامى للرجال من أن المرأة لن تعيش على ذكرى الخيانة إذا غدر بها زوجها وتزوج غيرها ، وهى فى مثل عمرها ، وأن الرجل ينبغى أن يتحمل تبعات أفعاله فى الحياة ، وإلا يطالب زوجته الأولى بالتضحية ، أو قبول الأمر الواقع أو الصبر عليه ، حتى يرجع إلى نفسه !

وليس لى على رسالتها التحذيرية الأخيرة اعتراض ، لأنى أؤمن فعلاً

بعدالة أن يتحمل كل إنسان تبعات اختياراته فى الحياة ،وألا يطالب أحداً بالتنازل عن بعض حقوقه لـه ، لكـى يسعد هو بحياته ، وبالوضع الذى يراه ـ من وجهة نظره ـ أكثر تلبية لاحتياجاته العائلية والاجتماعية .

أما إنك لم تتزوج بغيرها من فراغ ، وإنما بعد صبر طويل على تعاستك الزوجية معها ،وأما إنـك لم تكـن ذات يـوم صاحـب نزوة ، ولا رجل مغامرات ، وإنما كان لك من شقائك الزوجى ما دفعك لأن تتزوج بغير زوجتك ، فليس لدى ما يحملنى على ألا أصدقك فى ذلك ، ولقد اعتدت أن أفترض الصدق فيمن يروى لى عن نفسه ، كما أنه لا يمكن أن تكون روايتك عن حياتك الزوجية مع زوجتك الأولى من نسج الخيال ، فى كل تفاصيلها، ولقد اختبرت صدقك حين رأيتك تعترف فى رسالتك، بأنك كنت ترغب ـ رغم كل ذلك ـ فى ألا تفارقك زوجتك الأولى ، من أجل مصلحة الأبناء ، ولكنها لم ترد أن تقدم لك ولابنائها هذا العطاء .

إذًا فهو اختلاف زاوية الرؤية مرة أخرى . . فزوجتك الأولى رغم كل ما جرى بينكما ، لم تكن لتتصور أن يدفعك ذلك إلى أحضان امرأة أخرى؛ لأنها هى الأم وشريكة الحياة منذ البداية . . إلخ .

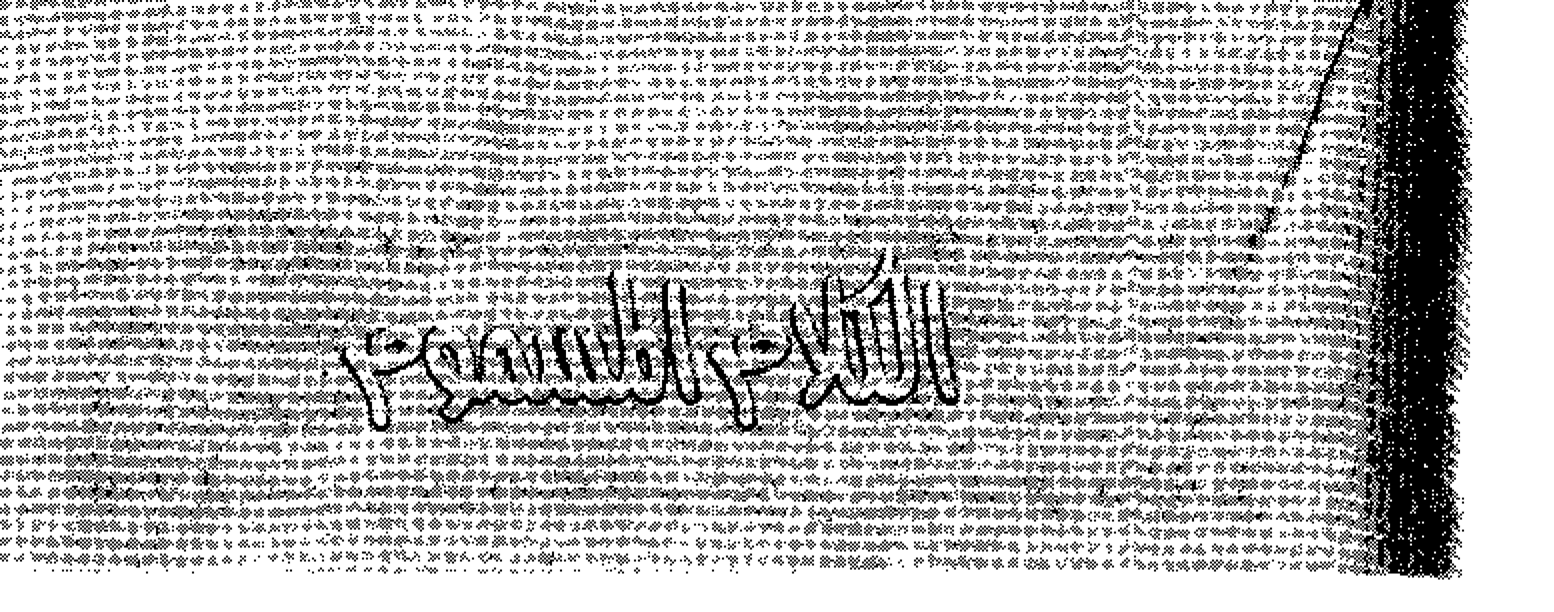
وأنت ترى أنك قد تجرعت ما فيه الكفاية ، وأن ذلك يعطيك الحق فى التماس السعادة لدى أخرى . ولقد قلت لزوجتك الأولى فى ردى عليها ،

أنها لو كانت قد اختارت الاستمرار من أجل الابناء ، فلم يكن لأحد أن يلومها ، وأنه ليس لأحد أيضًا أن يلومها على أنها لم تفعل انتصاراً لكرامتها كامرأة ، فإذا كان ثمة خطأ من جانبك فى القصة كلها ، ففى أنك قد أجريت حساباتك للزواج الجديد ، على أساس أن زوجتك الأولى ستقبل بالأمر الواقع ، وتستسلم له ، بعد أن تخمد ثورة البركان المألوفة ، وفى أنك قد رغبت فى ذلك بالفعل ؛ من أجل مصلحة الأبناء وحرصاً عليهم ، وفى هذا فلقد أخطأت الحساب ، وأنت أعرف البشر بالطبيعة البركانية لزوجتك ، كما تروى عنها . كما وقعت أيضًا فى الخطأ البشرى المتكرر ، الذى يتمثل دائمًا فى قول الإنسان لشركائه أو أعزائه أحياناً : لقد فعلت ما فعلت ، فاقبلوا بما حدث وتعذبوا به ؛ لكى أسعد أنا بالنيابة عنكم !

وما كنت فى حاجة للوقوع فى مثل هذا الخطأ ، مع كل ما ترويه عن تعاستك الزوجية طوال عشرين عاماً ، وبعد أن عجزت كما تقول عن مزيد من الاحتمال ، وتقدم الأبناء فى مدارج العمر ، وتملكتك الرغبة فى السعادة الشخصية ؛ حتى تغلبت عندك على بقية الاعتبارات العائلية ، وإنما كنت فى حاجة إلى مواجهة أمينة مع زوجتك بأنك قد تجرعت ما يكفيك من كأس الشقاء معها ، وأنك عازم على الزواج من غيرها ؛ فهل تقبل بذلك ، أم تفضل الانفصال فى هدوء واحترام ، فلا يحق لطرف بعد ذلك أن يلوم إلا نفسه .

ولكنه قد جرى ما جرى على أية حال . . وأصبح لكل منكما حياته

الجديدة وسعادته الخاصة بعيداً عن الآخر . . فلا معنى إذاً لهذه المساجلة بينكما ، وليسعد كل منكما بحياته واختياره لما اختار . . وإنى لأصدقك يا سيدى فى أنك لا تحمل أية ضغينة لزوجتك السابقة ، ولا تكره لها سعادتها مع زوجها الحالى ، وأشكرك على رسالتك المهذبة . . وأرجو أن تكون قد أفدت بها حقاً كل زوجة ، لا يسعدها أن تفاجأ بهروب زوجها فجأة من «جنتها» إلى «جحيم» امرأة أخرى !



أنا سيدة فى الخامسة والثلاثين من عمرى ، تعرفت على بابك منذ سنوات طويلة ، وقد قرأت رسالة «القلب البارد» للرجل متوسط العمر، الذى تمردت عليه زوجته ، وارتبطت بغيره ، رغم كل ما أحاطها به من حب ورعاية طوال زواجهما ، وكيف حصلت على الطلاق منه ، وتزوجت غيره ، وتركته يعيش وحيدًا يجتر أحزانه وذكرياته ، وأرسلت إليه زوجها الجديد ؛ ليفاوضه بقلب بارد فى أن يدع طفلته الوحيدة منها معها ؛ لتحظى برعاية ، وأنس صحبة «الأطفال» الجدد ، الذين سينجبهم منها ! وأريد أن أروى لهذه الزوجة ـ بالذات ـ قصتى ، أو قصة والدتى على وجه التحديد مع الزمن ؛ لعلها تستفيد منها .

لقد سافر أبى إلى مدينة الإسكندرية ، وهو فتى صغير فى السابعة عشرة من عمره ؛ ليلتحق بجامعتها بعيدًا عن الأهل والأسرة ، فكان يتردد بانتظام على مطعم صغير ، يقدم وجبات رخيصة للطلبة ، وحين بلغ السنة الثالثة من دراسته الجامعية ، رأى بهذا المطعم فتاة صغيرة فى السادسة عشرة من عمرها ، تعمل على الكيس ، وتعرف عليها ، وانشغل فكره بها طوال الإجازة الصيفية ، وهو مع أسرته ، إلى أن رجع

مع بداية العام الدراسى الجديد ، وصارحها بحبه ورغبته فى الزواج منها، وتزوجا ، وهو طالب بالبكالوريوس فى الحادية والعشرين من عمره ، وهى فى السابعة عشرة من عمرها ، وبغير أن يعرف أهله ، وأقاما فى شقة من غرفة وصالة ببيت متواضع ، ومنعها أبى من العمل بالمطعم ؛ لترعى بيتها ، وراح هو يدرس فى النهار ويعمل فى المساء ؛ ليستعين بدخله من العمل على إعالة زوجته ، بجانب ما يتلقاه من أهله من مصروف شهرى .

وبعد ثلاثة شهور فقط من الزواج ، حملت أمى بى ، وأنجبتنى بعد عام من الزواج ، وتخرج أبى فى كليته بتقدير امتياز ، وعمل عملاً مناسباً بمرتب جيد ، وأنجب طفلة وطفلاً آخرين ، وواظب خلال ذلك على السفر إلى أهله ، كل صيف ، دون إبلاغهم بأمر زواجه ، إلى أن صارحهم به بعد خمس سنوات كاملة من الزواج ، وبعد أن كان قد أنجب طفلتين وولداً ، وفوجئت الأسرة بذلك ، ولم تملك إلا الاعتراف بالأمر الواقع .

ثم لاحت لأبى بعد ذلك فرصة للإعارة إلى دولة خليجية صغيرة ، فتقدم إليها ، وسافر للعمل إلى هناك ، ولم يلبث أن استدعانا إليه ، وبدأنا حياتنا معاً فى الغربة ، وعمرى ٤ سنوات ، وواصل أبى عمله باجتهاد فى هذه الدولة ، وتدرج فى العمل حتى أصبح مديرًا بإحدى الشركات ، وواظب على العودة مع أمى ، كل صيف لقضاء إجازة الصيف بالإسكندرية بالقرب من أهله .

وبعد تسع سنوات من الغربة ، اشترى شقة لنا بالثغر ، وسجلها باسم أمى ؛ لكى نرجع إليها فى الإجازات ، وكنت قد بلغت الثالثة عشرة من عمرى ، حين بدأت أسمع أمى تتجادل بعنف مع أبى ، وتقول له أمامنا إنها تكرهه ، وتريد الطلاق منه لترجع إلى مدينتها، وتتزوج غيره وتتركنا له ، وفوجئت أنا بهذا التهديد ، وأحسست بصورة أمى تهتز قليلاً فى مخيلتى ، ومع ذلك فلقد استمرت الحياة بينهما، واشترى أبى بعد سنوات شقة أخرى بالقاهرة ، وسجلها أيضًا باسم أمى . . وبعد شرائها عاودت أمى هذا الحديث الثقيل نفسه عن الطلاق ، وتركنا له . . إلخ

وسممت حياتنا بالنكد كل يوم ، وأبى صامت صابر لا يتكلم ، ويأمل فى استمرار الحياة معها حتى لا تتشتت بينهما ، وكمحاولة جديدة منه لإرضاء أمى ، راح يغدق عليها الهدايا والمجوهرات ، وسعى لأن يؤمن لها حياتها ومستقبلها ، فاشترى بيتاً من ثلاثة أدوار بمدينة نصر ، وسجله باسمها أيضاً ، فأصبحت مالكة لعمارة صغيرة من تسع شقق وشقتين أخريين . . إلى جانب ما ترجع به إلى مدينتها كل صيف من مدخرات ، تضعها بالبنك ، وتعود مع نهاية الصيف لتجمع غيرها! إلى أن عدنا للإسكندرية ذات صيف منذ سنوات .

ولاحظت أن شقيقى الأصغر قد بدأ يتأخر فى العودة للبيت فى المساء، وأنه يتحدث كثيرًا بصوت خفيض فى التليفون فدفعنى الفضول وقتها لأن أسجل له مكالماته ، لأعرف مع من يتحدث ، وبرمجت آلة

التليفون «الأنسر ماشين» على التسجيل ، وانتظرت حتى نام الجميع ، وأدرته لأكتشف سر شقيقى ، فإذا بى أسمع مكالمة بين أمى ورجل متزوج يكبرها بعامين ، كان يعمل معها بالمطعم القديم ويعاتبها ؛ لأنها تخلت عنه ، وتزوجت ذلك الطالب الجامعى الذى أغراها ، وذهلت وأنا أسمع أمى تعتذر له بصغر سنها وقتها ، وتقول له إنها تكره أبى ، بل وتكرهنا أيضاً ، نحن أبناءها ، لأننا من صلبه ، وتصف أبى بأنه جاف المشاعر ، وكيف أنه طوال حياته معها لم يقل لها مرة واحدة كلمة : أحبك، أو يا روحى ، أو يا حياتى ، كما يقول لها هذا الرجل . . إلخ .

وصعقت حين سمعت ذلك ، وانهرت باكية وساخطة ، على أمى ، التى كانت فى الثالثة والأربعين من عمرها فى ذلك الوقت ، وتتحدث مع رجل غريب ، وعلى هذا النحو ، وتسب أبى وتسىء إليه وإلينا ، وحرت ماذا أفعل ! هل أصارح أبى بما عملت ، وتتهدم الأسرة ويتمزق الأبناء؟ . . أم أن أنطوى على سرى وأسكت ، وابتلعت قهرى وغيظى وصمت ، ولكنى بدأت أصحو من نومى فى الليالى التالية مفزوعة وباكية؛ حتى صممت على ترك الإسكندرية ، والعودة إلى للقاهرة مهما كانت الظروف ، وتشاجرت أمى معى ، واتهمتنى بالأنانية لأننى أريد حرمانها من الإجازة بمدينتها ، وضربتنى وعمرى عشرين سنة ، حتى كدت أنفجر فيها ، وأعلنها بما عرفت عنها . ولكنى لزمت الصمت المقهور ، حتى وهى تسبنى وتستثيرنى طوال رحلة السيارة من الإسكندرية للقاهرة .

ولأننى أدركت أن الصلة بينها وبين ذلك الرجل لن تنقطع بمغادرتنا للثغر ، فقد برمجت أيضًا جهاز التليفون بشقة القاهرة على تسجل المكالمات ، وسمعت ونحن فيها ما أتقزز منه ، حين أتذكره الآن. . . سمعتها وهى تسنبى فى التليفون فى حديثها مع هذا الرجل ؛ لأننى أجبرتها على العودة من الإسكندرية ، وكيف مازالت تسترجع ذكرى اللحظات الجميلة السعيدة معه . . . إلخ .

وانتهت أجازتنا الصيفية ، ورجعنا للدولة الخليجية ، وأمى تضمر الشر والنكد ، وتريد الطلاق بإصرار كما أوصاها بذلك الطرف الآخر ، وأبى يلاطفها ويراوغها لكى ترضى وتستمر طوال عامين كاملين، وخلال ذلك كنت قد تخرجت وتقدم لى أكثر من شاب ، ولم تتم الخطبة، فإذا بأمى تعايرنى بذلك ، وتقول لى إنها حين كانت فى مثل سنى ، كانت قد تزوجت وأنجبت طفلين ، و«تبشر» أبى بأن بناته سوف يصبحن عوانس بإذن الله ، وأنه سوف يرى فيهن كل ما لا يحب أب أن يراه فى بناته! ثم ترجع للحديث من جديد عن الطلاق وتطلبه بإصرار .

وتوالت المشاحنات والمشاجرات بينهما ، إلى أن تم الطلاق فى النهاية، وحانت ساعة مغادرتها لمسكننا فى الغربة ، عائدة لمصر فحبس أبى نفسه فى غرفته . . وانطوى حزينا وصامتا . . فذهبت إليها فى غرفتها ، وواجهتها بكل ما عرفت عنها ، وبأنها لم تحفظ كرامة الرجل ، الذى أعطاها كل ما يستطيع ، ولم تحفظ أبناءها فهددتنى وصرخت فى وجهى ، وقالت لى إننى قد حصلت على أعلى الشهادات ، لكنى لم

أحصل على ما هو أهم منها وهو رجل يشعرنى بأنوثتى ، ويظلل حياتى بالحب والاهتمام ، ثم غادرت المسكن بغير أن تصافحنى أنا وشقيقتى ، أما شقيقنا فقد كان غائبًا لحسن الحظ فى سفر .

وخرجت أمى إلى المطار، وبكينا أنا وشقيقتى بحرقة ، حتى جفت دموعنا ، وعاش أبى أسبوعاً كاملاً منطويًا على نفسه فى غرفته ، زاهدًا فى الطعام والكلام ، يراجع حياته معها ، ويجد نفسه فى كل مرة غير مقصر معها فى شىء .

نعم لقد كان جاف المشاعر معها ، وعصبياً ومتقلب المزاج ، وضربها مرتين طوال ٢٤ سنة من الزواج ، حين تطاولت عليه أكثر مما يحتمل رجل ، ولكنه من الناحية الأخرى لم يقصر فى حقها كامرأة ، وأمَّن لها الحياة الرغدة والبيت السعيد والأبناء ، واشترى لها «الأملاك» ، التى كانت تتحدث عنها فى التليفون مع رجلها . . فلماذا فعلت به وبنا ما فعلت !

وجننت أنا وشقيقتى لعزلة أبى واكتئابه ، وصممنا على أن نخرجه من أحزانه ونسرى عنه ، وأحطناه بحبنا واهتمامنا ليل نهار ، إلى أن قال لنا بعد أسبوعين من الطلاق إنه قد اكتفى من الغربة بهذا القدر ، وآن الأوان له ولنا لأن نرجع إلى بلدنا وأهلنا ، ونبدأ هناك حياة جديدة ، وترك أبى كل شىء فى الغربة ، ورجعنا ، وعاد أخى من سفره إلينا وصارحناه بكل ما حدث .

وكانت أمى خلال ذلك قد أتمت عدتها ، وتزوجت رجل المطعم القديم ، المتزوج من سيدة تصغره بـ ١٣ عامًا ، وله منها أبناء ، وأرسلت لأبى وإلينا صورًا لها مع زوجها الجديد ، وهما يتعانقان ويتبادلان القبلات السعيدة لكى تزيد من حرقتنا وقهرنا واكتئابنا ، وأرسلت أيضاً نسخًا من هذه الصورة لأسرة أبى ، وكتبت على الصور المرسلة لنا عبارة «جميلة» تقول فيها لأبى ـ لا فض فوها ـ إن «بناته» سوف يبقين إلى جواره طوال العمر دون زواج إن شاء الله ! وجن جنون شقيقى حين رأى هذه الصور ، وأقسم لينتقمن منها ومن ذلك الرجل ، وخشى أبى مغبة ذلك ؛ فسعى بكل جهده لإبعاده وحثه على السفر للخارج بكل وسيلة حتى سافر ، وطابت الحياة لأمى مع زوجها الجديد .

ولكن الأقدار شاءت ألا يتحقق سوء ظنها فينا نحن بناتها ، فبعد شهور تقدم لخطبتى مهندس شاب ممتاز ، لا أعرفه لكنى قبلت به ؛ لكى أدخل السرور إلى قلب أبى الحزين وأخوتى ، ولأن الأعمال بالنيات يا سيدى فلقد وجدت فيه خير الرجال وأفضلهم ، وعشت معه حياة سعيدة ، وحملت فى طفلى الأول وأنجبته، قبل أن أتمَّ عامًا واحدًا من الزواج ، كما تقدم طبيب شاب آخر لأختى الصغرى وتزوجته وسعدت به وسعد بها ، وخلا البيت على أبى «فتآمرت» عليه مع شقيقتى وشقيقى وزوجى وزوجها وشقيقنا المسافر ، وقررنا أن نزوجه على الفور من سيدة ترعاه وتعوضه عما تعرض له ، ووفقنا الله سبحانه وتعالى إلى فتاة عمرها ثلاثون سنة ، مكافحة لم تتزوج ؛ لأنها كانت تعول أمها وإخوتها

الصغار، وعرضنا عليها أبانا فرحبت به ، وتزوجها وهو فى الثامنة والأربعين من عمره . فإذا بها فتاة طيبة وصبور ، وتسعد بكل ما يقدمه لها أبى ، وها هى الأيام قد مضت يا سيدى ، وأنجب أبى مرة أخرى من زوجته الجديدة ، وأصبح زوجى مهندسًا ناجحاً ، وزوج شقيقتى طبيبًا مرموقاً .

وأصبحنا نحن وأزواجنا وأطفالنا قبيلة سعيدة كبيرة ، تتجمع عند أبى وزوجته مساء يوم الخميس من كل أسبوع ، فيسعد بنا وبأحفاده ويضج البيت بالضحك والبهجة والسرور طوال الأمسية ، أما أمى التى باعت كل شىء من أجل أحلام الحب القديم ، فلم يدم زواجها برجلها سوى سبع سنوات فقط ، نجح خلالها زوجها فى تجريدها من كل أو معظم أملاكها ، بعد أن وقعت له على بياض أوراقاً ، مكنته من ذلك ، وباعت شقة الإسكندرية وشقة القاهرة ، وعمارة مدينة نصر ، لكى تسدد التزاماتها له ، ورجعت من جديد للإقامة بمسكن أمها القديم بالحى الشعبى بالإسكندرية ، وتعيش الآن من عائد مبلغ بالبنك لم ينجح زوجها فى اكتشافه ، ولو كان قد عرف بأمره لاستولى عليه أيضاً ، وكانت قد أصبحت فى الخمسين من عمرها ، حين تخلى عنها زوجها ، وصارحها بأنه لم ينقطع عن زوجته الأولى طوال زواجه منها؛ لأنها جميلة وأصغر منها بـ ١٥ عاماً ، فى حين تبدو هى فى هيئة أمه، مع أنه يكبرها بعامين فقط .

وحين هجرها ذلك الرجل وانفضت الدنيا من حولها ، تذكرت أمى

فجأة أن لها أبناءً ، وأنها تفتقدهم فاتصلت بى ، فلم أرحب باتصالها بى ، ولم أشجعها على تكراره . . ولم أعطها أى بارقة أمل فى إمكان تجدد الصلة بيننا ، وتذكرت حين اتصلت بها شقيقتى الصغرى يوم زفافها ، فقالت لها أمى : أنت لست ابنتى ، وأنا لست أمك . . ووجدتنى أردد عليك الإجابة القاتلة نفسها : أنا لست ابنتك . . وأنت لست أمى ! ثم أغلقت الخط !

وأرجو ألا تلمنى على ما قلت لها وما فعلت معها ، فلقد وافقنى عليه أخوتى ، واتفق رأينا على أنها لم «تتذكرنا» إلا بعد ضياع كل شىء ، وأنها قد هدمت أسرتها بسبب الكلام المعسول ، الذى ردده لها هذا الرجل ، والذى كانت تفتقده لدى أبى . .

ومازلنا أنا وأختى نتساءل : هل الحب بالكلام فقط أم بالسلوك والتصرف ؟ لقد هدمت أمى أسرتها ، وضحت بنا لأن أبى لم يكن يجيد حلو الكلام ويردده على مسامعها ، وارتبطت بالآخر لأنه كان يسمعها هذا الكلام المسموم ، فهل الحب بالكلام فقط يا سيدى ؟ لقد مضى على زواجى الآن ١١ عاماً ، ولم أسمع من زوجى عبارة واحدة من كلمات الحب والغزل ، ولكنى أشعر بحبه لى وألمسه فى كل تصرفاته معى ، وأنا لا ألتفت لهذه التفاهات ، فماذا كان يضير أمى لو كانت قد احتضنت أبناءها وزوجها ، وحمت عشها من الخراب . .

ألم تكن تعيش الآن معززة مكرمة بين زوجها وأبنائها وأحفادها ، بدلاً

من وحدتها وحياتها كمنبوذة من أبنائها الآن ؟ وماذا جنت الآن من حياتها وتبطرها عليها وعلى أبى وتخليها عنا ؟، وماذا قدم لها الكلام المعسول المسموم إلا الخراب والدمار وضياع «أملاكها»، التى كانت تتفاخر بها على يدى زوجها المخادع ؟

ترى هل نجا هذا الرجل بما فعل بها ؟ أبداً والله فلقد بدد معظم ما استولى عليه من أمى فى علاج ابنه ـ كما علمنا ـ من مرض خبيث بالدم ، وفى علاجه هو نفسه من الذبحة الصدرية ، التى تكررت عليه عدة مرات ، بل وأيضاً فى علاج زوجته ، التى تعرضت لحادث كبير. فهل أغناه ما استولى عليه من مال سيدة ، أغراها بخراب بيتها وهجر أبنائها وزوجها ؟

إن كلمتى إلى كاتب رسالة «القلب البارد» ، هى ألا يحزن ، وألا يستسلم للاكتئاب والمرارة لتخلى زوجته عنه وارتباطها بآخر ، رغم كل ما فعل ؛ لكى يرضيها طوال حياتها الزوجية ، لأن الله لن يتخلى عنه ولن يدعها تنجو بما فعلت أو تهنأ به ، ونصيحتى له كلما ضاقت به الدنيا ، هى أن يردد دائماً : حسبنا الله ونعم الوكيل ، وأن يعمل بنصيحتك المخلصة له ، ويبدأ حياة جديدة مع أخرى تسعد به وتقدره حق قدره، كما أوجه كلمتى لكل من يسعى لخراب بيت عامر بالأبناء ،وإغواء أم بالبعد عن أبنائها ، وأقول لهم : أتقوا الله فى زوجات الآخرين وأمهات أبنائهم ولا تزينوا لهن خراب البيوت بالكلام المسموم وأوهام الحب السعيد بعد فوات الأوان ، حتى لا تدفعوا من حياتكم وصحتكم وأمانكم ثمن كل ذلك فى النهاية والسلام . .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض البشر ينطبق عليهم المثل القديم الذى يقول : « إنهم كالنواتية لا يذكرون الله ، إلا ساعة الغرق!» فإذا هدأ البحر وزال الخطر ، رجعوا إلى سيرتهم الأولى فى الحياة إلى أن يواجهوا خطر الغرق من جديد !» .

ولقد استرجعت فى مخيلتى هذا المثل القديم ، وأنا أقرأ فى رسالتك عن اللحظة ، التى تذكرت فيها والدتك بعد سبع سنوات أن لها أبناء قد هجرتهم ، وعرضتهم لمحنة قاسية بإصرارها على الطلاق من أبيهم ، والزواج من آخر يجيد ترديد كلمات الحب والهيام، التى افتقدتها من قبل، فاتصلت بك بعد أن جردها زوجها من معظم أملاكها وهجرها، ورجع لزوجته الأولى ، فشتان ما كان بين حالها وهى فى ذروة غرورها بنفسها وانكفائها على ذاتها ورغباتها وأهوائها ، حين واجهت شقيقتك الصغرى بالرفض والإنكار ، وتبرأت من بنوتها ، وما كان من أمرها وضعفها وهوانها على الآخرين ، حين فقدت كل شيء ، وخلت الدنيا من حولها ، وهجرها من هجرت هى زوجها وأبناءها من أجله . . فإذا بابنتها تصفعها بالعبارة القاسية نفسها ، التى صفعت هى بها ابنتها الأخرى من قبل !

ومع أنى لا أقبل بمنطق المعاملة بالمثل بين الأبناء وآبائهم وأمهاتهم ـ حتى ولو استسلموا لأهوائهم ، وأساءوا هؤلاء الأبناء أبلغ الإساءة ـ إلا إنى لا أملك فى النهاية إلا أن أقول سوى أنه موقف مكافىء لموقفها

السابق منكم ، وهى فى غمار غلوائها وإنشغالها بذاتها ورغباتها عن كل شيء آخر ، وسوى أنه موقف لا يجافى العدل . . وإن تجافى مع منطق الرحمة الواجبة بين الأبناء والأمهات والابناء ، صدوعًا بما أمرنا الله سبحانه وتعالى من حسن معاملتهم . . فى كل الظروف والأحوال .

غير أن منطق البشر قد لا يطيق أحياناً مثل هذا التجرد النبيل من مشاعر الغضب والرغبة فى الثأر ، وإذاقة الآخرين مرارة الكأس نفسها التى جرعوها لهم من قبل . وربما نجد بعض تفسير ذلك فى كلمة الأديب الأيرلندى العظيم برنارد شو : يكون الإنسان فاضلاً ، إذا أعطى مجتمعه أكثر مما أخذ منه !

ومغزى هذه العبارة على المستوى العائلى ، هو أن الأبناء ينتظرون دائماً من أبائهم وأمهاتهم ، أن يكونوا من الفضلاء الذين يعطون لمجتمعهم الصغير ـ أى للأسرة ـ أكثر مما يأخذون منها دائماً ! . . وأن يضحوا دائماً باعتباراتهم الشخصية لحساب سعادة الأبناء وأمانهم .

فإذا خالف أحد الأبوين ذلك ، وسعى لتحقيق أهوائه ورغباته هو على حساب مصلحة الأسرة والأبناء ، فلقد توقف بذلك عن العطاء للأبناء، وفضل الأخذ من الدنيا لنفسه ، على أن يعطى هو من نفسه لأبنائه ، وأصبح حسابه مديناً مع «مجتمعه» العائلى ، بعد أن كان دائناً ، فلا عجب إذا فقد بذلك بعض ما كان يشعر به هؤلاء الأبناء تجاهه من احترام وولاء وعرفان .

وقد يفسر لك ذلك ما شعرت به من اهتزاز صورة أمك فى مخيلتك ، حين بدأت تلح على أبيك فى الطلاق ، وتنذره بأنها سوف تترك له أبناءه، لتتزوج من آخر ، ثم توالت الشروخ بعد ذلك على صورة الأم ؛ حتى شوهتها تمامًا ، حين اكتشفت أمر علاقتها بالرجل الآخر ، وكراهيتها لأبيك ولأبنائها منه ، وحين لمست أيضًا محاولات أبيك الصادقة ؛ لاسترضائها ، والحفاظ عليها وعلى أسرته من الدمار ، وكيف لم تنجح فى النهاية فى منع والدتك من الاستسلام لأهوائها ، والارتباط برجلها القديم، لغير ما سبب ، سوى ذريعة الكلام الحلو وعبارات الغرام والهيام ، التى لا يجيدها والدك .

ولاشك فى أن موقفك منها كان مقدرًا له أن يختلف كثيرًا ، لو كانت والدتك قد طلبت الانفصال عن أبيك بعجزها عن احتمال العشرة معه ، . . أو لاكتشافها للدرس المتأخر ، الذى لا يكتشفه الغاوون أبدًا إلا بعد فوات الأوان ، وهو أن حب المراهقة ليس هو الحب الأصيل الحقيقى فى حياة الإنسان؛ لأنه هو نفسه يختلف نفسيًّا وعاطفيًّا اختلافاً كبيرًا ؛ حين يجتاز مرحلة المراهقة وتنضج مشاعره وشخصيته .

أقول إن موقفك منها ، كان من الممكن أن يختلف لو كانت قد انفصلت عن زوجها لمثل هذا السبب أو غيره ، وبغير الارتباط وهى زوجة وأم برجل آخر ، وتم انفصالها عن أبيك ، فى إطار الاحترام وبغير هذه الروح العدائية ، التى تعاملت بها مع أبنائها قبل الانفصال ؛ حتى تنبأت لهن بالبوار والفشل فى حياتهم ، ثم تزوجت بعد ذلك بفترة مناسبة

من رجل آخر ، وحرصت على استمرار علاقتها الإنسانية بأبنائها . . وبذلت كل جهدها لاستمرار التواصل العاطفى بينها وبينهم ، وشاركتهم مناسباتهم السعيدة ، بإحساس الأم التى لا تنقطع صلتها بابنائها أبداً ، حتى ولو انقطعت علاقتها بأبيهم ، ولكنها لم تفعل ذلك للأسف ، وتعاملت معكم بقسوة وجفاء شديد فى المشاعر ، كأنما قد جفت ينابيع الأمومة فى أعماقها تجاهكم ، وبلغت الذروة فى الكيد لكم والرغبة فى إيذاء مشاعركم ، حين أرسلت إليكم صورها مع زوجها الجديد ، وهما يتبادلان القبلات السعيدة ، كأنما تتلذذ بإيلامكم والإساءة إليكم .

لقد أسرفت على نفسها فى ذلك كثيرًا . . وجهلت أو تجاهلت عمق الجراح ، التى يمكن أن تدمى بها مثل هذه الصور ، قلب ابن لها فى سن الشباب ، يجفل بطبيعته البشرية من أن يتخيل أمه فى أحضان رجل ـ أى رجل ـ حتى ولو كان أباه ، فما بالها برجل غريب ، فلا عجب إذاً أن هدد بالنيل منها ، حتى اضطر أبوه لإبعاده . . وأى حمق وأى جهالة وأى شهوة للانتقام من الأعزاء ، الذين ينبغى أن نترفق بهم ، وليس أن نقسو عليهم على هذا النحو . .

فإذا كنت تسألين بعد ذلك يا سيدتى ألا يغنى التعبير عن الحب بالأفعال . . عن الحاجة إلى الكلام المعسول للتعبير عنه ، فإن جوابى عن تساؤلك ، هو أن للحب وسائل مختلفة وعديدة للتعبير عنه . . أرخصها الكلام .

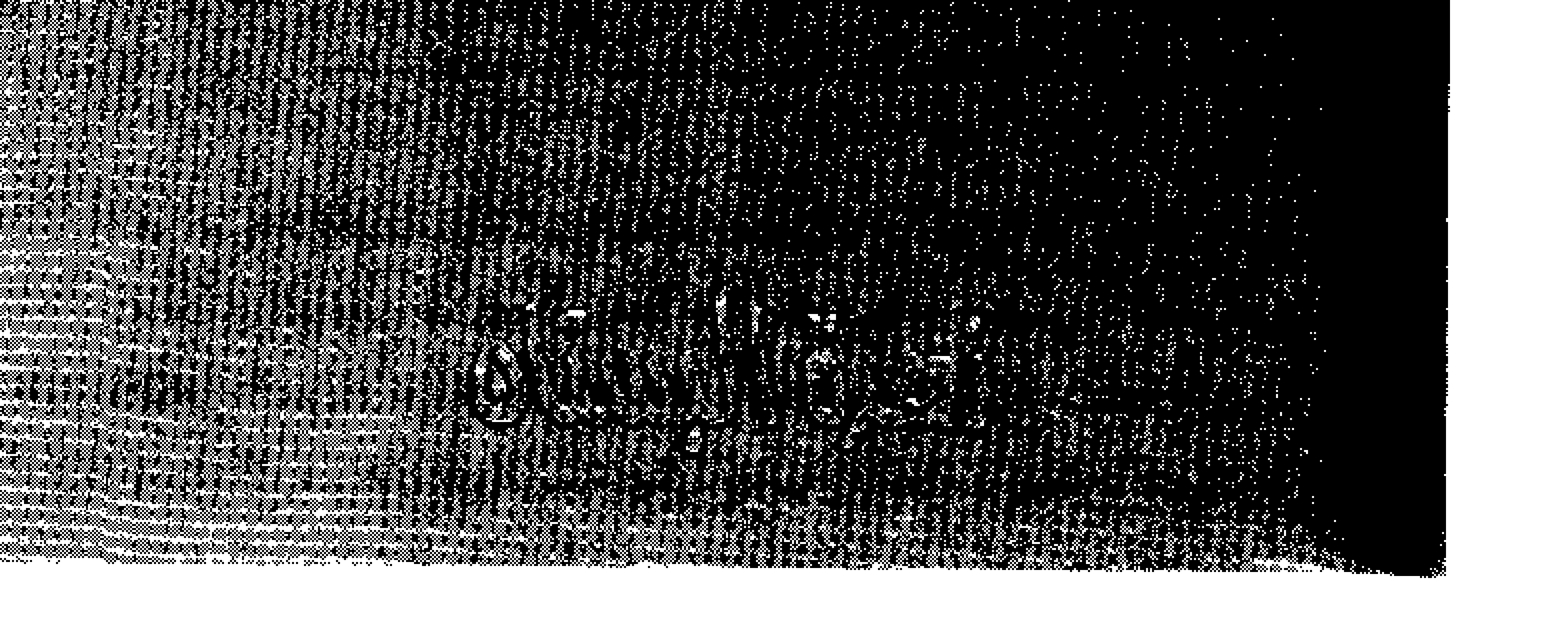
وإذا كنا نقول دائمًا إنه من واجب الإنسان تجاه من يحرص عليهم دائما ، أن يقترن تعبيره العملى عن الحب لهم بالتعبير البلاغى عنه بالكلمات أيضاً ، فلأن النفس تهفو دائمًا إلى أن تسمع ما يؤكد لها صدق المشاعر بالكلمات الرقيقة التى تنبه المشاعر . . وتجدد الأحاسيس وترطب الأوقات . . ولكنه لو خير أصحاب القلوب الحكيمة بين التعبير العملى عن الحب بالأفعال والمواقف والتضحيات والاختيارات . . . والتعبير البلاغى عنه وحده ، لما ترددوا فى اختيار الوسيلة الأولى لأنها أصدق تعبيرًا بالفعل عن الحب الحقيقى الصادق ، ولأنه ما أسهل الكلام . . وما أصعب العطاء الصادق والتضحيات والأفعال .

ولقد عبر والدك عن حبه لوالدتك بالطريق العملى الصعب ، وعجز عن الطريق الأسهل، الذى لا يكلفه سوى نسج الكلمات ، فتحولت عنه مشاعر أمك . . إلى غيره ،« ومنهم من يحب الشر أحياناً ويبغض الخير» على حد قول أبى بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه .

وعبر زوجها الثانى عن «حبه» لها بمعسول الكلام السهل وحده ، وعبر عن استغلاله لها بالطريق العملى الصريح ، فسلبها أموالها وأملاكها وهجرها عائداً إلى زوجته الشابة ، فأى الطريقين تفضل الآن والدتك المهجورة ، ممن هجرت هى أبناءها إليه .

ومتى ينصف الإنسان نفسه من نفسه ، قبل أن ينصفها من الآخرين، وينصفهم منه ؟

فأما كلمتك إلى كاتب رسالة «القلب البارد» ، فأرجو أن يقرأها ويتعزى بها عن بعض آلامه . . وأما نداؤك إلى الأمهات والرجال ، الذين يغوونهن بالكلام المسموم لهدم أسرهم . . وارتشاف الحب والسعادة معهم . . فأضعه تحت أنظارهم وأنظار الجميع ، وشكرا لك على رسالتك المفيدة . . والسلام .



دفعني للكتابة إليك رسالة « الثمن الغالى » للسيدة التى تزوج عليها زوجها من فتاة أخرى ، فرفضت قبول الأمر الواقع ، وأصرت على الحصول على الطلاق . . وتزوجت من رجل آخر ، عاشت معه كما تقول سعيدة ، وأنذرت فى ختام رسالتها كل الرجال بأنهم سيدفعون الثمن غالياً لخياناتهم لزوجاتهم ، وأن عهد قبول الزوجة للأمر الواقع وبكائها على الأطلال قد آذن بالانتهاء ، وأنها تستطيع أن تبدأ حياتها مع رجل آخر فى أى مرحلة من العمر ، إذا لم يحفظ لها زوجها عهد الوفاء !

ومع أننى لم أتزوج زوجة أخرى سرًّا ، ولم أخن زوجتى ، فلقد دفعت هذا « الثمن الغالى » لأسباب مختلفة ، وكان من الغريب حقًّا أن ارتبط اسمك واسم بابك الأسبوعى المفيد ، هذا بما حدث من تطورات فى حياتى فى الفترة الأخيرة ، وكأننى كنت معك على موعد مع القدر فى لحظة مصيرية لم يكن كلانا يدرى عنها شيئاً .

أما قصتى . . فلقد بدأت منذ ثلاثة وعشرين عامًا ، حين تزوجت

من سيدة فاضلة، وعشت معها قصة كفاح طويلة ، بدأتها موظفًا بإحدى الوزارات السيادية بمؤهل فوق المتوسط ، وحصلت خلالها على المؤهل العالى ، ورزقت من زوجتى ـ خلال رحلة العمر ـ بثلاثة أبناء ، وصل أكبرهم الآن إلى السنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ، وتدرس الابنة الوسطى بإحدى الكليات العملية ، وبدأ أصغرهم هذا العام مرحلة الدراسة الثانوية ، ومنذ بدأت قصة حبنا أنا وزوجتى ، وأنا أشبه زوجتى «بالزهرة» ، التى تتفتح فى بستان حياتنا ، وتنفث فيه عطرها ، وأشبه نفسى بالبستانى الذى يرعاه ويخدمه ويشقى لحمايته ، فقد كنت أواصل العمل من الصباح إلى المساء ، لأحقق دخلاً يضمن لنا الحياة الكريمة ، وأتنقل من عملى الحكومى إلى الأعمال الإضافية المختلفة التى تنقلت بينها ، وأرجع فى النهاية إلى بستانى ، متلهفًا إلى زهرتى الجميلة ، وبراعمى الصغيرة الوليدة .

وكما يجرى فى كل حياة أخرى . . . فلقد مرت بحياتى الزوجية بعض العواصف والأعاصير . . . التى كادت تدمر البستان بكل ما فيه ، ونجحت بهدوئى وصبرى فى حمايته منها حتى كبرت البراعم الصغيرة ، واشتد عود الأبناء .

وفى إحدى هذه العواصف الزوجية العابرة ، منذ ثلاث سنوات ، وبتأثير انفعالى بها واكتئابى لها نفست عن نفسى ، خلال وجودى بعملى الحكومى ، وكتبت قصة قصيرة أسميتها « البستانى العجوز » على شكل رسالة من قارىء إلى كاتبه المفضل ، يشكو إليه فيها من سخط زوجته

الدائم الذى أحال حياته إلى جحيم، ومن كلماتها اللاذعة التى لم يعد يحتملها ، ومن طلباتها الكثيرة التى تتجاوز إمكانياته المادية ، على الرغم من كفاحه ليل نهار ، ليلبى احتياجات أسرته ، ورويت فيها كيف تحولت زوجته بذلك من « زهرة » فى بستانة . . إلى « زهرة » برية سامة ، تدمى أصابعه بأشواكها ، كلما اقترب منها .

وانتهت العاصفة الزوجية ، كما انتهت غيرها من قبل ، وظلت «القصة القصيرة » حبيسة فى درج مكتبى مع غيرها من القصص ، التى أهوى كتابتها من حين لآخر ، إلى أن حان موعد سفر بعثة الحج الرسمية فى العام الماضى ، والتى أرافقها كل سنة من ٣ أعوام بصفتى الوظيفية ، فجمعت قبل السفر كالعادة أوراقى ومتعلقاتى الشخصية من مكتبى بالوزارة ، لأحتفظ بها فى البيت ، خلال سفرى وسافرت مطمئنا . . وانشغلت بأداء واجبى الوظيفى ، إلى جانب أداء المناسك المباركة ، ورجعت بعد شهرين ، فإذا بى أجد الحرب العالمية الثالثة قد أعلنت فى بيتى ، خلال فترة غيابى !

فلقد عثرت زوجتى على « القصة » أو على « الرسالة » ، كما أصرت هى على تسميتها ، وفتحت علىَّ باب نيران الجحيم من كل اتجاه ، وتردد اسمك مرارًا خلال مجادلاتنا على سطح من الصفيح الساخن ، وانهالت الاتهامات على شخصى الضعيف من زوجتى وهى تقول : لقد هاجمنى . . لقد شهَّر بى على صفحات الجرائد . . لقد أساء إلىَّ . . إسمانى بالزهرة البرية السامة ، التى أحالت حياته إلى جحيم إلخ ، ثم طلبت الطلاق بإصرار غريب !

وحاولت بكل جهدى أن أقنعها بأنها ليست سوى قصة ، تتضمن بعض أحداث حياتنا ، ولكنها ليست رسالة شكوى منها وأكدت لها مرارًا وتكرارًا أننى لم أبعث بها إليك . . وسألتها متى قرأتها فى بابك ، وهى الحريصة على قراءته باهتمام كل أسبوع . . ولكن بلا جدوى ، فلقد اشتعل الفتيل ، ولم ينطفىء أبدا ، وتحولت الحكاية إلى مجرى أخر تمامًا غير حكاية الرسالة والشكوى منها إليك ، واكتشفت زوجتى فجأة أنها عاشت معى ثلاثة وعشرين عامًا تحت خط الفقر ، مع أننا ننفق ثلاثة أضعاف دخلى من عملى الحكومى ، وتنبهت فجأة إلى أن بستاننا الذى كانت زهرته ، ليس سوى «خرابة» تتكاثر فيها الفئران والصراصير، مع أن هذه « الخرابة » مجهزة بالتليفزيون الملون والفيديو والغسالة الفول أتوماتيك والثلاجة ذات البابين والمكنسة الكهربائية والنجف والمراوح والبوتاجاز والخلاط والمكواة والكبة . . . إلخ .

صحيح أنها شقة من غرفتين ، لكنها ليست « خرابة » بأية حال من الأحوال ، كما أن لنا « خرابة » أخرى تمليك تعاونى ، مازالت تحت التشطيب ومن ثلاث غرف ، وقد رفضت زوجتى خلال محاولات الصلح ومواصلة المسيرة فكرة الانتقال إليها بعد تجهيزها . . ورفضت فكرة بيعها وشراء غيرها فى مكان آخر ، إذا كان موقعها لا يعجبها ، ورفضت كل شىء ، وكل اقتراح ، وأصرت ـ فى عناد وتجبر ـ على الطلاق .

ومضت شهور ، وأنا أحاول إثناءها عن طلبها من أجل الأبناء

«تارة» ؛ لكى يظل لهم سقف يحميهم ، ومن أجلها هى نفسها تارة أخرى ، وليس لها من يمكنها الاعتماد عليه أو يكفلها ، ويدفع عنها عوادى الزمن فمضت كل هذه المحاولات عبثًا ، وخلال ذلك مرض أصغر أبنائنا بمرض مزمن ، أدعو الله أن يشفيه منه بقدرته ، ثم يئست أنا تمامًا فاستجبت لرغبتها ، وذهبت معها إلى المأذون ، وطلقتها نزولاً على رغبتها ، وتركتها تعيش مع أبنائها فى « خرابة » الزوجية السابقة ، على أن تحصل منى على كل الالتزامات المادية ، التى كنت أؤديها من قبل دون نقصان ، معتزمًا الالتزام بذلك إلى ماشاء الله ، وانتقلت للعيش فى « الخرابة » الأخرى ، التى مازالت تحت التشطيب ، وأصبحت أزور أبنائى مرة كل أسبوع ، ملبيًا طلباتهم المادية والاجتماعية وأعطيها مستحقاتها الشهرية فى موعدها ، وأدعو الله أن يعيننى على الوفاء بهذه الالتزامات ، إلى جانب ما أضيف إلى مما زاد من أعبائى المادية بنفقات حياتى فى الشقة الأخرى .

وهاأنذا يا سيدى أدفع « الثمن الغالى » ، الذى أنذرتنا به كاتبة الرسالة فى تشفٍ وشماتة واضحين ، لكنى لا أدفعه ثمنا للغدر أو نقض عهد الوفاء لزوجتى السابقة ، ولا لزواجى من أخرى عليها فى السر ، وإنما أدفعه ثمنًا لشىء آخر هو عدم الرضا وعدم القناعة بما كتبه الله لنا . . كما أدفعه ثمنًا لسوء الظن بشريك العمر ، واعتقاد زوجتى الراسخ أننى قد شهرت بها وشكوت منها إليك ، والله يعلم وأنت تعلم كذلك أننى ما أرسلت إليك تلك « الرسالة » ، أو تلك القصة الأولى ، وأنك

ما نشرتها فى بابك هذا ، وأن هذه هى المرة الأولى التى أكتب فيها، ولكنها الأقدار التى شاءت لى أن أدفع أيضًا ثمن الوفاء لعشرة زوجية مرت بحلوها ومرها وبهدوئها وعواصفها وانتهت

ولكن صلتى بها لا تنتهى لأنها أثمرت ثلاثة أبناء ، أرجو الله أن يكتب لهم السعادة والاستقرار فى حياتهم . . مالم تشأ أرادته سبحانه وتعالى أن تكتبه لى فى هذه المرحلة من عمرى ، فعسى الله أن يعوضنى فيهم عما حرمت منه ، وعسى الله أن يغفر لنا جميعا ذنوبنا وأخطاءنا فى حق أنفسنا وحقوق الآخرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

أما وأنها المرة الأولى التى تكتب لى فيها عن نفسك وزوجتك ، فهذا حق لا مراء فيه ، وأما إن تلك « الرسالة » كما تسميها زوجتك ، أو القصة كما تسميها أنت هى التى وضعت حد النهاية لعشرتك مع زوجتك، فهذا أمر يحتاج إلى تفسير ومناقشة .

ذلك أن شكوى زوج من زوجته ، خلال إحدى أزماته معها ، وأيًا كانت طريقة « البوح » التى اختار أن يصوغ بها ما يعتمل فى نفسه من أفكار وخواطر تجاهها . . فإنها لا تسوغ وحدها أبدًا هدم عشرة زوجية ، دامت ثلاثة وعشرين عامًا ، وأثمرت ثلاثة أبناء ، وتشابكت خلالها الخيوط والذكريات ، على هذا النحو ، ولقد تثور الزوجة ثورة عارمة إذا قرأت فى أوراق زوجها بعض ما يجرح مشاعرها ، أو يتهمها بما ترى هى

نفسها بريئة منه ، ولقد يطول غضبها أو يقصر ، ولكنها لا تتمادى غالبًا فى الخصام إلى حد الإصرار على الطلاق ، وهدم بيت الزوجية ، وتعريض الأبناء لمحنة الانفصال وبعناد لا تفلح كل المحاولات فيه لمثل هذا السبب وحده . .

والأقرب للمنطق يا صديقى هو أن يكون بنيان هذه العشرة الزوجية نفسها ، قد نخر فيه سوس الشقاق تدريجيًّا لسنوات طوال قبل ذلك ، حتى إذا ما انفجرت أزمة الرسالة المزعومة ، تداعى البنيان فجأة تحت وطأة آخر معول أصابه ، فبدا للناظرين ، وكأن ضربة هذا المعول الأخيرة هى التى « قوضت» أركانه ، والحقيقة أنها لم تكن سوى اللمسة الأخيرة ، التى لم يكن البناء يحتاج لاكثر منها ؛ لكى يتداعى معلنًا سقوطه بتأثير عوامل التعرية المختلفة ، على مدى زمن طويل .

ولقد أصبت أنت كبد الحقيقة ، حين قلت إن عشرتك الزوجية قد تحطمت على صخرة عدم القناعة وعدم الرضا . . وعدم الرضا بواقع الحال يفتح دائمًا النوافذ لشياطين السخط والتمرد . . والخلاف والشقاق، وباقى أسباب الكدر العديدة .

وبغض النظر عما إذا كانت لدى زوجتك أسباب أخرى ، لا أعلمها لما آلت إليه سفينة الحياة المشتركة بينكما من جنوح ، أم لم تكن ، فلست أملك إلا الأسى لك ، وأنت تجد نفسك مضطراً فى هذه المرحلة من العمر لفراق شريكة الكفاح ، التى كانت حتى وقت قريب زهرة

بستانك ، وبراعمك الصغيرة ، التى تفتحت واشتد عودها لتعيش وحيدًا فى شقة غير مجهزة ، ترعى أسرتك عن بعد . . وتفتقد دفء الحياة العائلية السابقة ، وأوقات صفائها الغابرة .

فهى محنة إنسانية فى حد ذاتها ، إيًا كانت الأسباب التى أدت إليها ، وأيًا كان الطرف الذى يتحمل القدر الأكبر من المسئولية عنها .

ولا شك أنك لم تردها لنفسك، ولا لأبنائك ، وإنما جرت بها عليك المقادير ، كما تجرى بها أحيانًا على غيرك ، وفى كل الأحوال والظروف فلقد أعجبت كثيرًا بحرصك بعد أن أعيتك كل الحيل للإصلاح على إنهاء العلاقة الزوجية مع زوجتك فى إطار من الاحترام والهدوء ، وبغير أن تنازعها فى شىء أو تمزق أبناءك بين أبوين يتراشقان بالاتهامات البشعة ، أو يتفنن كل منهما فى الافتراء على الآخر والنيل منه .

فحين تتحطم سفينة الحياة الزوجية لقدر ، لم يكن فى الإمكان رده ، ينبغى لطرفيها دائمًا أن يجنبا أبناءهما الهم الآخر المضاعف ، الذى يزيد من معاناتهم ، ويزلزل كيانهم حين يرون من كانا حتى وقت قريب يتقاسمان فراشًا واحدًا ، وقد تحولا فجأة إلى مردة وشياطين ، تتفنن فى إيذاء الطرف الآخر ، ومنازعته حول توافه الحياة وأعراضها الزائلة . .

كما أعجبت كثيراً أيضًا بوفائك بالتزاماتك المادية تجاه اسرتك ، والتزاماتك الادبيةوالاجتماعية تجاهها ، مؤثرًا بذلك ألا يتكبد أحد من الأبناء مغبة العناء ، وفشل مساعى رأب الصدع بينك وبين زوجتك السابقة .

فهكذا يفعل الآباء ، الذين يستشعرون مسئولياتهم الأخلاقية والدينية تجاه أبنائهم . . بل وتجاه شركاء الحياة السابقين ، الذين فرقت بينهم الأيام أيضًا ! فلا يتحولون بالنسبة لهؤلاء الشركاء فجأة إلى خصوم فجرة ، لا يرعون لذكرى العشرة السابقة حقًا ، وإنما يسلمون بانقضاء العشرة بينهم لأسباب ، لم يكن فى الاستطاعة درؤها ، ويحرصون على استمرار العلاقة الإنسانية معهم ؛ لأن العشرة ـ كما قلت أنت صادقًا ـ قد تنتهى مع شريكة الحياة ، لكن العلاقة الإنسانية العادلة معها لا ينبغى لها أن تنتهى أبدًا ، وقد أثمرت أبناء ، يربطون بين الطرفين برباط لا فكاك منه إلى الأبد .

وهذا هو أدب الخلاف النبيل بين شركاء الحياة السابقين ، وبين طرفى كل علاقة إنسانية ، أذنت شمسها بالمغيب فلا يفجر أحدهما فى خصومته للطرف الآخر عند الخلاف ، ولا يطلق الوحش الكامن فى أعماقه ، تجاه من كان حتى وقت قريب موضع تقديره وإجلاله ، ولا يستسلم لغرائزه البدائية معه ، فيفحش له القول ، أو يلاحقه بالأذى والعدوان ، أو يهدر كل ما كان بينهما من فضل سابق أو جميل غابر ، ولا يتنكر لكل ما اسداه له من قبل ، وإنما يفعل كما يفعل الشرفاء فى خصومتهم ، حين يكبحون جماح شهوة العدوانية والإيذاء والانتقام تجاه من اختلفوا معهم ، ويلتزمون معهم بأدب الخلاف ، الذى يردهم عن الإساءة إليهم ولا يمنعهم من الدفاع عن أنفسهم ، ويستروحون من ذكرى الوفاق السابق ، ورصيد الود القديم ما يرطب مشاعرهم تجاه

هؤلاء ، ويردهم عن كل فعل أو قول ، يحسب على أخلاقياتهم وعرفانهم بالجميل ووفائهم ، لمن طالت بهم عشرته من قبل .

فإذا كان بعض من يلتزمون بآداب الخلافات النبيلة هؤلاء ، قد يخسرون فى البداية بعض الجولات ، فإنهم يكسبون فى النهاية ما هو خير وأبقى ، وهو احترامهم لأنفسهم ، واتساق سلوكياتهم مع قيمهم ومبادئهم ، واحترام المنصفين ، الذين يقدرون للفضلاء تعففهم عن فجر الخصومة بمثل ما يزدرون به ، من لا يردون على تصرفاتهم وعدوانيتهم أى قيد ، بل إنهم قد يفوزون أيضًا فى كثير من الأحوال باحترام خصومهم أنفسهم فى أعماقهم ، حتى ولو لم يعترفوا لهم به علانية . . لأن فى اعترافهم به إدانة لأنفسهم ، بأنهم ليسوا من أهل الفضل وحفظ الكرامات عند الخلاف .

وأمثال هؤلاء الفضلاء الذين لا يهتكون عرض من يختلفون معه لأمر من الأمور ، ولا يفجرون فى الخصومة معهم ، هم الذين يسهل على من اختلفوا معهم من قبل أن يشعروا بالذنب تجاههم . . وأن يسعوا لإعادة الود المنقطع بينهم ؛ لأن تجربة الخلاف معهم قد أثبتت لهم أنهم ممن يأمن لهم المرء عند الخلاف ، بمثل ما يأمن لهم عند الوفاق ، ولا شك أنك قد اخترت أن تكون من أهل الفضل هؤلاء ، فتلتزم بأدب الخلاف النبيل مع زوجتك ، ولهذا فإنى لن أتعجب إذا ما رجع الود المنقطع الآن بينك وبين زوجتك فى أى مرحلة قادمة . .

وإنما إيضًا لأنه ليس كالخلاف امتحان ، تختبر به أخلاقيات المرء

وحقيقة معدنه ؛ ولأن فترة الانفصال الحالية قد تصبح فرصة ملائمة لكل منكما ؛ لكى يراجع خلالها حياته ونفسه ومواقفه من الطرف الآخر، وماذا أفاد وماذا خسر من تجربة الطلاق ، فتهديه طبيعته الخيرة الباحثة عن الأمان ؛ لأن يعترف للطرف الآخر بفضائله التى حجبتها عن ناظريه شدة القرب منه .

ولا عجب فى ذلك لأن فضائل شريك الحياة قد تكون فى بعض الأحيان كسمات اللوحة الفنية ، قد نحتاج أحيانا إلى أن نبتعد عنها قليلاً لكى نستجلى كل جمالها وروعتها ، وتغيب عنا بعض عناصرها وسماتها ومميزاتها إذا اقتربنا منها بشدة !

كما قد تهدى أيضًا هذه المراجعة كلا منكما إلى الاعتراف ببعض عيوبه وأخطائه ، وأوجه القصور فيه ، فيحاول أن يغير من نفسه ، وأن يرى وجه الحق فى وجهة نظر رفيقه ؛ فيقترب منه ، بدلاً من الابتعاد عنه .

ومع أنى أتحفظ غالبًا على الحكم على أسباب الانفصال ، التى لا أعرفها عادة إلا من طرف واحد ، فإنى أجد فيما التزمت به أنت من آداب الخلاف مع زوجتك السابقة ، ما يكفينى لأن أدعوها لمراجعة موقفها منك ، وإلى ترجيح دوائر الاتفاق على نقاط الخلاف معك ، وإلى إنصافك وإنصاف نفسها وأبنائها من هذا الفراق ، الذى تتأذى به كل الأطراف ، ولا تدعو إليه ضرورة قاهرة من استحالة العشرة ، أو سوء سلوك الزوجة ، أو غدره بعهد الوفاء مع زوجته ، فمطالب الحياة المادية أو الاستزادة منها لا يمكن أن تكون أبدًا « مبررًا نبيلاً » لهدم عشرة

زوجية، دامت ثلاثًا وعشرين سنة ، وتهديد أمان الأبناء ، وثقتهم فى حاضرهم ومستقبلهم ، وبالتفاهم والتعاون الصادق بين الشريكين يمكن تذليل كل الصعاب ، وإعادة السفينة الجانحة إلى مجرى النهر من جديد .

فهل آمل أن تجمع الأقدار بيننا يا صديقى فى موعد جديد ، مع لحظة مصيرية أخرى فى حياتك ، تكون هذه المرة لحظة سعادة ووفاق ، وليست لحظة فراق وشقاق ، كما كانت فى المرة السابقة للأسف ؟

إننى أأمل ذلك مخلصًا ، وأرجوالله أن يحققه لى ولكما فعسى أن أسمع منك ومن زوجتك ما يحقق هذا الأمل الغالى ، فى وقت قريب بإذن الله .



أنا طبيبة شابة فى منتصف العمر ، حاصلة على أعلى الدرجات العلمية فى أحد فروع الطب ، وقد نشأت فى أسرة مترابطة لها جذور عميقة ، وكان أبى رحمه الله من علماء الأزهر الشريف ، وأحد أساتذته ، وله مؤلفات عديدة فى الفقه والدين ، تدرس الآن فى الجامعات المختلفة، ولى ثلاث شقيقات ، وأخ كبير ، نشأوا جميعًا فى هذا المناخ المعطر بعطر القيم الروحية .

وقد تزوجت جميع شقيقاتى ، وكذلك شقيقنا الأكبر ، حين كنت فى مراحل التعليم المختلفة ، ثم التحقت بكلية الطب ، وواصلت تفوقى الدراسى ، فكنت طوال دراستى بالكلية من الطالبات المثاليات ، ولأن الله سبحانه وتعالى قد حبانى بدرجة عالية من الذكاء والفطنة ، أشكره عليها أناء الليل وأطراف النهار ، فلقد ساعدنى ذلك على تفهم أشياء كثيرة وتمتعت دائمًا باحترام الزميلات والزملاء وإعجاب أساتذتى بتفوقى

ونشاطى ، ورفضت كل من حاول أن يخطب ودى خلال مرحلة الدراسة الجامعية . وآمنت بأن لكل مرحلة من العمر هدفها ، وأن هدفى فى هذه المرحلة هو النجاح فى الدراسة ، ثم يجيء الزواج بعد ذلك ، وواصلت دراستى حتى حصلت على شهادتى الجامعية بتفوق .

وبدأت التفكير فى اختيار شريك الحياة ، وتقدم لى كثيرون قبلت منهم من رأيت فيه ضالتى المنشودة ، وكان يعمل خارج مصر ، فكان فى الأيام القليلة التى سبقت الزفاف ، عذب الحديث عف اللسان دمث الخلق ، وتمت الخطبة وعقد القران والزفاف بأسرع مما يتخيل أحد ، بناء على طلب زوجى، الذى يريد العودة لعمله ، وقبل الزفاف بأيام زارتنى صديقة لى ، وتساءلت كيف أتزوج بهذه السرعة ، ولم أعرف بعد زوجى حق المعرفة ، فأجبتها بأنه حتى لوطالت الخطبة سنوات ، فلن يعرف أى زوجين بعضهما البعض حق المعرفة ، إلا حين يغلق عليهما معًا مزلاج باب المسكن ، ولكننى أدعو الله أن يكون زوجى رجلاً صالحًا ، كما يظهر لى الآن .

وتم الزفاف وقضيت مع زوجى بضعة أيام جميلة لا تحسب من العمر، فى أحد المنتجعات السياحية ، ثم طرنا إلى البلد الذى يعمل به ، ووصلنا إلى عشنا الجديد الدائم ، وأنا سعيدة ومبتهجة ، وأدعو الله أن يحفظ علينا سعادتنا ، فما أن دخلنا المسكن ، وأغلق علينا « المزلاج » حتى بدأ زوجى الذى عرفته فى الأيام القليلة السابقة عذب الحديث وعف اللسان ، ينطق بكلمات بشعة نابية ويتصرف تصرفات لا تصدر

إلا عن كائن همجى ، وذهلت لما سمعت من كلمات خارجة وسوقية ، وما رأيت من تصرفات ، وتشاغلت عن ذهولى بترتيب البيت ، وأنا واجمة لإطلاعى على هذا الجانب الآخرلشخصية زوجى .

وبعد فترة قصيرة ارتدى زوجى ملابسه ، وطلب منى الخروج لتلبية دعوة العشاء فى بيت أحد أصدقائه ، وخرجت معه فما أن غادرنا المسكن، حتى رجع زوجى إلى ماعهدته فيه من قبل بشوشًا وضاحكًا ، ويداعبنى بأرق الكلمات وقضينا السهرة فى بيت أصدقائه ، فكان زوجى خلالها رجلاً تتمناه أى أمرأة ، حتى خشيت عليه من الحسد ، وتناسيت ما بدر منه من قبل وبررته له بإرهاق السفر ، ورجعنا إلى بيتنا ، فما أن دخلنا البيت وأغلق علينا المزلاج مرة أخرى ، حتى رجع زوجى إلى سيرته الأولى ، وأعاد على مسامعى الألفاظ النابية نفسها ، وأذى مشاعرى بتصرفاته ، التى تبعث على الاشمئزاز ، ولم أطق صبرًا هذه المرة وانفجرت فيه مستنكرة عليه ما يقول وما يفعل ؛ فإذا به يجيبنى ببرود « وما وجه الغرابة فيما أقول أو أفعل ، وأنا فى بيتى . . ومن حقى أن أستمتع بحريتى فيه ، كما أشاء ؛ حتى أستطيع مواصلة حياة التكلف خارجه ! » .

وذهلت مرة أخرى ، وتساءلت : هل فى بذاءة اللسان حرية أو متعة؟

وهل فى ارتكاب المعاصى بالخوض فى أعراض الناس سعادة وراحة ؟

واستمرت حياتنا بعد ذلك على المنوال نفسه . . خارج البيت زوجى

رجل مهذب وعف اللسان و «جنتلمان» كما يقولون ، وفى داخله مخلوق غير آدمى على الإطلاق ، حتى كرهت البيت ، وحاولت أن أقضى معظم أوقاتى خارجه .

ومضت خمس سنوات ، وأنا أجاهد جهاد الأبطال لإصلاح زوجى وتغييره بلا طائل ، حتى سلمت بأن طباع الإنسان تجرى منه مجرى الدم ، ولا سبيل لتغييرها ، وكنت قد أنجبت منه خلال هذه السنوات طفلتين جميلتين ، وبعد أن باءت كل محاولاتى للإصلاح بالفشل ، نفد صبرى وعجزت عن الاحتمال فآثرت الانفصال ، قبل أن يحدث مالا تحمد عقباه ، وطلبت منه الطلاق بالحسنى ولكنه رفض بإصرار وعناد ، فرجعت إلى بيت أهلى ومعى الطفلتان ، وقررت أن أجعل هدف حياتى هو تربيتهما ، والوصول بهما إلى بر الأمان .

وتصورت أن متاعبى قد انتهت عند هذا الحد ، فإذا بى لا أسلم رغم انفصالى عنه من أذاه ؛ بحجة أننى مازلت زوجته ، فلجأت إلى القضاء للحصول على الطلاق ؛ لكيلا تصبح له حجة على ، فمضت خمس سنوات حتى الآن وأنا أتنقل بين أرجاء المحاكم بغير أن أحصل على الطلاق . . ومازلت مقيمة فى بيت أهلى ، ولا أنا زوجة فأسعد بحياتى مع زوجى . . ولا أنا مطلقة فأتصرف فى أمورى كما أشاء ، ولا أستطيع السفر للخارج لحضور مؤتمر علمى ، أو حتى لأداء فريضة الحج والعمرة لماذا ؟ لأننى زوجة ، لابد من موافقة زوجى على ذلك . هذه يا سيدى هى القضية التى أكتب لك من أجلها ، قضية المرأة التى لا هى

زوجة ولا هى مطلقة . . وأريد أن أسأل من بأيديهم الأمر ، أين الشرع والقانون من موقف هذه المرأة ؟ ألم يعط الشرع للزوجة حق الخلع ، إذا ما تنازلت عن كل حقوقها المالية لدى الزوج ؟ أليس للزوجة حق التطليق إذا لم تأمن على نفسها مع زوجها ؟

لماذا لاتمنح الزوجة حريتها ، إذا تقدمت بطلب التطليق للقاضى ، بمجرد أن تطلب ذلك ، ودون اللجوء إلى تأجيل القضية سنوات وسنوات لإحضار شهود ووثائق . . . إلخ .

وكيف تستطيع زوجة لها حياؤها ومركزها العائلى والاجتماعى ، أن تحضر شهودًا على ما يجرى بينها وبين زوجها وراء الأبواب المغلقة ، وما بين الزوجين لا يعلمه أحد إلا الله وحده ؟

وكيف تظل زوجة مثلى ، فى أعلى درجات العلم والثقافة والتعليم ، ويشهد لها الجميع بحسن الخلق ورجاحة العقل والفكر ، حبيسة زوج غير آدمى كهذا الزوج ؛ لمجرد اقتنائه ورقة تشهد بأنه زوجها ! ألم يحثنا ديننا على المعاشرة بالمعروف أو المفارقة بإحسان ؟

لقد عرضت على زوجى فى إحدى مشاجراتنا معا إرجاع المهر ، الذى دفعه ، ومع ذلك فلقد رفض تسريحى بإحسان أو بغير إحسان ، ولقد قرأت فى بابك منذ فترة رسالة بعنوان « اللقب البغيض » تشكو لك فيها سيدة من أنها مطلقة ، وتكره هذا اللقب البغيض ، وها أنا أحلم اليوم لأن أحمل هذا اللقب البغيض ، الذى يبدو لى من بعيد المنال . . بل إنى

لا أخفيك سرًا أننى بعد أن يئست من تحقيق العدالة فى الأرض بمنحى حريتى ، فقد أصبحت أتضرع إلى الله كل يوم أن تتحقق عدالة السماء ، وأن يمنحنى لقبًا أجمل وأعظم ، هو لقب الأرملة !

فهل يعفينا أولو الأمر من مثل هذه الأمنية ، بأن يجعلوا قضايا الطلاق من اختصاص قاضى الأمور الوقتية المستعجلة ، وبحيث يتم الفصل فيها سريعًا ، وليس بعد سنوات ؛ لأنها أحق القضايا بذلك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بغض النظر عن جدية أو عدم جدية الأسباب التى دعتك إلى الانفصال عن زوجك وحرمان طفلتيك من حقهما العادل فى الحياة الأسرية الآمنة ، فلقد شرع الإسلام للزوجة إذا عجزت عن إصلاح زوجها .. أو عن احتمال عشرته وأبى الزوج أن يطلقها ، أن تقدم لزوجها من مالها ما تفتدى به نفسها ، فيما يعرف بنظام الخلع فى الفقه ، ومن الثابت فى الأثر أن امرأة ثابت بن قيس قد جاءت إلى رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، فقالت له عن زوجها : يا رسول الله ما أعتب عليه فى خلق ولا دين لكنى أكره الكفر فى الإسلام « أى إنها لا تطيقه بغضًا » فسألها النبى الكريم : أتردين عليه حديقته « وكانت مهرها » فأجابته بالإيجاب ، فأمره بأن يسترد منها حديقته ، ويسرحها ولا يزيد عن الحديقة شيئا فيما يأخذه منها .

وهذه هى الحال ، التى شرع فيها الاسلام الخلع ، حين تكره زوجة كراهية شديدة ، تستحيل معها العشرة ، دون إيذاء لها من جانبه ، أو

إضرار بها فتقدم إليه من مالها ما تفتدى به نفسها ، ومن علامة الشريف ألا يقبل لنفسه عشرة من لا تطيق عشرته ، وألا يرضى لنفسه أيضاً أن يكون الخلاص منه أملاً ، تدفع فيه له زوجته الفدية من مالها ، ولقد يكفى مثل هذا الرجل أن يشعر بأن قرار زوجته بالانفصال عنه لارجعة فيه .. ولا أمل فى العدول عنه بعد فترة من مراجعة النفس ، لكى يبادر هو بإطلاق سراحها متعففا حتى عن قبوله أية « فدية » لذلك .. لأن هذه الفدية نفسها قد تجرح مشاعره ، بأكثر مما جرحتها رغبة زوجته فى الانفصال عنه ، دون إيذاء من جانبه لها ، ومع ذلك فلا لوم على من يقبلها ، وإنما اللوم كل اللوم على من يضيق على زوجته ويؤذيها نفسيًا ومعنويًا وبدنيًا ، إلى الحد ، الذى يدفعها لعرض هذه الفدية عليه للتخلص من عشرته ، وهذا هو الخلع غير المشروع ، الذى يرى فضيلة الإمام الأكبر الراحل الشيخ محمود شلتوت ، أنه إذا وقع فإن الطلاق يكون نافذًا تخليصاً للمرأة من الضرر والإيذاء ، ولكنه يجب على الرجل أن يرد عليها ما أخذه منها مقابل الطلاق .

أما إذا كانت الزوجة غير قادرة ماديًا على أن تتخلص من ضرر زوجها بالفدية ، أو كانت قادرة ، ولكن زوجها رفض ذلك ، وآثر الإبقاء عليها والاستمرار فى إيذائها . فلقد شرع الإسلام أيضًا لمثل هذه الزوجة أن ترفع أمرها إلى القضاء ، وأن تثبت بين يديه الضرر الذى ينالها من استمرار عشرتها لزوجها ، فيطلقها القضاء منه ، ومن نقطة إثبات الضرر هذه تأتى المعاناة ، ويطول النزاع فى ساحات المحاكم ، ويسهم بطء

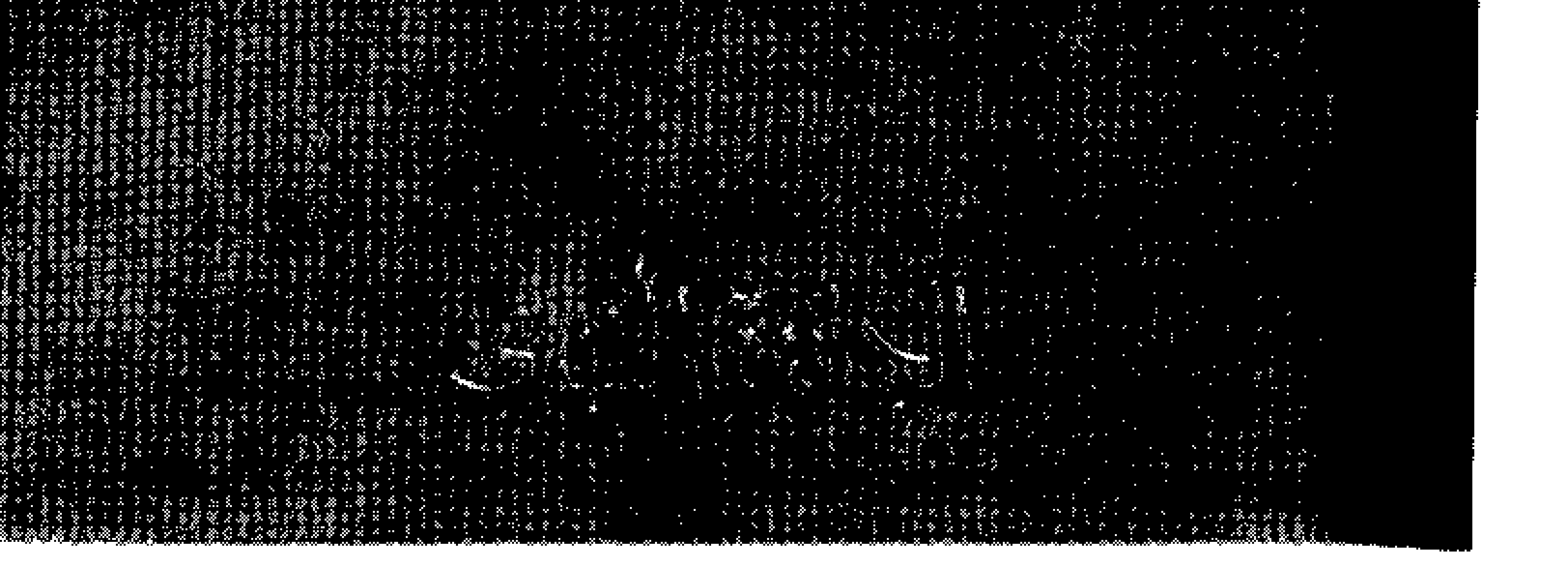
التقاضى فى إطالة العناء إلى الحد ، الذى يسىء بغير قصد إلى الشرع الحنيف ، الذى لا يجبر امرأة على عشرة رجل لا تحبه .

وإذا كنت أختلف معك فى جدية أسبابك للطلاق من زوجك ولعلك لم تفصحى عنها كلها ، فإنى لا أختلف معك فى أنه لا يليق بكرامة رجل مهما تكن أسبابه أن يحبس زوجته رغمًا عن إرادتها ، وحتى تضطره إلى الوقوف أمامها فى ساحات المحاكم . . فلقد قيل بحق إن الإسلام لم يكره شيئًا مباحًا كما كره الطلاق ، لما فيه من أضرار للأسرة والأبناء . وعلى الرغم من ذلك . . فلقد شرعه علاجًا للحياة الزوجية نفسها ، ونظمه على نحو يتيح للزوجين مراجعة نفسيهما ، وتدبر عواقبه وآثاره على الأبناء ، بما قد يسمح لهما بالعدول عنه فى أى مرحلة ، أو إذا جرب كل من الزوجين نفسه بعد الانفصال ، ووجد لديه الرغبة فى استئناف الحياة الزوجية مع شريكه السابق ، ولقد رأينا من قبل كيف أن مجرد بغض الزوجة لزوجها وعجزها عن احتمال عشرته ، قد يكفى لأن تخلع نفسها منه .

فكيف إذن يقبل رجل على نفسه ورجولته وكرامته أن يتمسك بزوجة ، تهجره منذ خمس سنوات ، وترد عليه مهره ؛ طلبًا للخلاص منه حتى ولو كانت مصلحة الصغار هى دافعه إلى ذلك . . إذا تذكرنا أن مصلحة هؤلاء الصغار أنفسهم، لم تمنع زوجته من الإصرار على الطلاق ؟

يا سيدتى . . . إننى سواء اتفقت معك فى أسبابك أو لم أتفق ، فإنى أضم صوتى إلى صوتك فى جعل قضايا الطلاق والأحوال الشخصية

بصفة عامة من اختصاص القضاء المستعجل ، ليس فقط تجنبًا لما ينجم عن بطء التقاضى فيها من مآس إنسانية عديدة ، وإنما أيضًا لما يقدمه طول النزاع فى قضية مثل قضيتك هذه من انطباع خاطىء عن موقف الشرع الحنيف من حق المرأة ، فى الحصول على حريتها ، إذا كرهت زوجها، أو إذا شكت منه الضرر والإيذاء النفسى ، وهو انطباع خاطىء وظالم بكل المقاييس . . والسلام ! .



لا أعرف هل من حقى أن أوجه إليك هذا السؤال الذى يشغلنى الآن أم لا . . لكننى أشعر على الرغم من ذلك برغبة شديدة فى الحديث إليك بشأنه والتحاور معك ، وقبل أن أوجه لك السؤال الحائر ، أريد أن أشرح لك مقدماته وأسبابه ، فأقول لك فى البداية : إننى إنسان على مشارف الأربعين من العمر ، وقد نشأت ابنًا وحيدًا لأب يعمل موظفًا بإحدى الهيئات ، ولم ينجب سواى ، ولم يمهله العمر لكى يرى غرسه ينمو ويكبر أمام عينيه ، فرحل عن الحياة ، وأنا طفل فى التاسعة من عمرى ، وتفتحت مداركى فوجدت أمى ، هى محور حياتى وحياة أسرتنا الصغيرة ، وأدركت ـ حين تقدم بى العمر بعض الشىء ـ أن هذه السيدة الريفية البسيطة ، قد أقدمت على اختيار صعب ، هو ألا تتزوج بعد أبى ؛ لكى تكرس حياها كلها لتربيتى وتوفير كل ما تملك من جهد وإمكانيات لتعليمى ، مع أنها كانت فى الخامسة والثلاثين من عمرها ،

حين رحل أبى عن الحياة ، وعلى الرغم من معارضة أهلها لوحدتها فى مثل هذه السن .

وبمعاش أبى المحدود ، واجهت أمى أعباء الحياة بصلابة و إصرار ، وباعت حين تقدمت فى مراحل الدراسة ميراثها القليل من الأرض الزراعية . . وأنفقت ثمنه على تعليمى ، وحرمت نفسها من كل شىء فى الحياة ، ووفرته لى لكى أتعلم . . وانتقلت بنا الأيام من مرحلة فى التعليم إلى مرحلة أخرى ، وليس لى فى الحياة سواها . . وليس لها سواى أملاً وعزاءً وأنيسًا لوحدتها .

ومن جانبى . . فإنى لم أخيب آمال هذه السيدة العظيمة فى ابنها الذى كرست له حياتها . . وواصلت تعليمى بتفوق كبير ، وكلما أحرزت نجاحًا جديدًا ، سعدت به أمى أضعاف سعادتى به ؛ حتى تخرجت فى كليتى العملية متفوقا كعادتى وعملت معيدًا بالكلية نفسها ، ولعلى لا أكون مغاليًا إذا قلت لك إننى قد فرحت لها بنجاحى وتفوقى بأكثر مما فرحت به لنفسى ، لأننى قد رددت لها به بعض دينها على . .

واستقبلنا معًا مرحلة جديدة فى حياتنا ، وترطبت حياتنا ببعض اليسر المادى لأول مرة ، وانتقلنا إلى مسكن أفضل ، ثم حصلت على الماجستير، ورشحت لبعثة للحصول على الدكتوراه من إنجلترا ، وكنت قد قاربت الثلاثين من عمرى ، وبدأت أفكر فى الزواج ، وأتلفت حولى باحثًا عن شريكة حياة ، فكان مطلبى الوحيد ، هو أن يوفقنى الله سبحانه وتعالى إلى فتاة ، تقبل بوجود أمى فى حياتى ، ولا تعترض على إقامتها معنا فى مسكن واحد .

ومن بين طالباتى ، راقبت فتاة محجبة ، شعرت بأنها يمكن أن تكون شريكة الحياة التى أبحث عنها ، واقتربت منها ، ووجدت لديها استعدادًا لقبولى وقبول ظروفى العائلية ففاتحتها برغبتى وصارحتها بأنها إذا قبلت بالارتباط ، فإن أمى سوف تعيش معنا ، حيث نقيم سواء فى مصر أو فى الخارج ، لأننى لا أستطيع أن أتخلى عنها ، تحت أى ظرف من الظروف ، ولم تبد فتاتى اعتراضًا على ذلك ، وتقدمت لأسرتها ، وحدثت والدها عن هذه الظروف نفسها ، فوجدت لديه ترحيبًا بها ، وتقديرًا صادقا لبرى بأمى ، وتمت الخطبة على عجل لاقتراب موعد السفر ، وبعد قليل تم عقد القران ، ثم أزف موعد الرحيل إلى إنجلترا ، فسافرت وحيدًا ، وانتقلت أمى من مسكنى للإقامة مؤقتًا فى بيت شقيقها ، وكانت رغبة زوجتى فى البداية هى ألا تلحق بى فى إنجلترا . وأن تنتظرنى ثلاث سنوات حتى أحصل على درجتى العلمية ، وأرجع للاستقرار فى مصر ، ونتزوج . . لكنى أقنعتها بأن تلحق بى ، وأن نتزوج هناك على الفور .

وبدأت بترتيب إقامتى فى إنجلترا ، والانتظام فى الدراسة ، وكنت خلال الأسابيع الأولى من غربتى ، أطلب من زوجتى أن تذهب إلى بيت خالى ؛ لاصطحاب أمى معها إلى بيت أسرتها لكى أتحدث إليها هناك ، لعدم وجود تليفون ببيت خالى ، فكانت خطيبتى تفعل ذلك ، وتصطحبها معها فى موعد الاتصال التليفونى ، وأتحدث إليها وإلى خطيبتى ، ثم استقرت أحوالى فى الغربة بعد شهور ، فطلبت حسب

الاتفاق السابق بيننا من زوجتى أن تلحق بى حيث أقيم ، وأن تصطحب معها أمى ، التى حصلت على تأشيرة إقامة لها بوصفى ابنها الوحيد ، ففوجئت بزوجتى ترفض سفر أمى معها ، وتصر على الحضور وحدها ، وتبرر ذلك بأنه من الأفضل أن تأتى إلينا أمى فيما بعد ، ولم أملك تغيير موقفها ، فحضرت زوجتى بالفعل ، وبدأنا حياتنا الزوجية معا فكان حوارنا أو خلافنا الوحيد من اليوم الأول ـ إلى جانب بعض المشكلات الصغيرة ، بسبب اختلاف الطباع . . ومؤثرات الغربة والمجتمع الجديد ـ هو أمى ، فزوجتى لا تريد لها الحضور إلينا ، مع أننى قد وفرت مسكنًا مناسبًا يتسع لنا جميعا فى راحة . . وكان خلافى معها هو كيف تحتمل أمى وحدتها وإقامتها المؤقتة فى بيت شقيقها لأربع سنوات أخرى ، وقد تزيد على ذلك ، إذا أتيح لى أن أعمل لبعض الوقت فى كليتى نفسها بإنجلترا .

واستغرق هذا الحوار ستة شهور ، منذ بداية حياتنا معاً ، وأصرت زوجتى على موقفها فى عدم إحضار أمى إلينا حتى النهاية ، ويئست نهائيا من محاولة إقناعها بذلك ، فخطر لى أن أضعها أمام الأمر الواقع ، لعلها تقبل به ولو بعد حين ، فرتبت إحضار أمى إلىَّ بغير علم زوجتى ، وأدهشنى أن تقدر سلطات الجوازات الإنجليزية رغبتى فى إحضار أمى لتعيش معى ؛ لأنها أرملة وحيدة ولا سند لها سواى ، فى الوقت الذى لا تقدر فيه زوجتى هذه الظروف نفسها ، ورتبت كل شىء بالفعل ، وأحضرت أمى إلى حيث أقيم ، فما أن علمت زوجتى بأنها قد ركبت

الطائرة فى طريقها إلينا ، حتى هجرت بيت الزوجية ، غاضبة إلى بيت خالتها المهاجرة مع أسرتها إلى إنجلترا ، منذ سنوات طويلة !

وجاءت أمى لتعيش معى ، وحدى فى الغربة ، وظلت زوجتى ترفض العودة للبيت ، إلا إذا رجعت أمى لمصر أولاً ؛ وتعجبت لذلك كثيرًا ، وتساءلت ماذا فعلت بها أمى ؛ لكى تتخذ منها هذا الموقف المتشدد ، وهى التى لم تعاشرها يومًا واحدًا من قبل ، فلا أجد جوابًا سوى أنها حين كانت تذهب إليها لتصطحبها إلى بيت أسرتها فى موعد الاتصال التليفونى ، كانت تقول كذا أو تفعل كذا من سفاسف الأمور التى لا تصمد لأى مناقشة .

وحاولت المستحيل مع زوجتى ، لكى ترجع إلى بيتها ونحن فى الغربة ، ولكن العناد كان قد ركبها إلى النهاية فلم تجد معها أية محاولة ، وبعد ستة شهور من إقامتها لدى خالتها ، رجعت إلى مصر واستقرت فى بيت أسرتها ووضعت طفلنا الوحيد ؛ فحاولت من جديد إعادة الشمل بعد مجىء الطفل إلى الحياة ، وقطعت بعثتى ، ورجعت فى إجازة لمصر للتفاهم مع زوجتى والعودة بها لإنجلترا ، فكان شرطها الوحيد لذلك هو ألا تسافر أمى إلى هناك ، وزاد من صلابة زوجتى أن صهرى ، الرجل الطيب ، الذى كان يقدر موقفى من أمى قد مرض مرضًا شديدًا ، ولازم الفراش خلال ذلك ، فأصبحت الكلمة النهائية فى الأمر لزوجتى وأمها التى ساندتها فى موقفها ، وبعد محاولات عديدة ، وصلنا إلى الطريق المسدود ، وتم الطلاق بيننا ، ورجعت آسفا إلى بعثتى . .

وانتهت سنوات البعثة بخيرها وشرها ، وحصلت على الدكتوراه ، وعملت بعدها لمدة عامين فى الكلية نفسها ، التى حصلت منها على درجتى العلمية ، ثم اخترت الاستقرار فى بلدى ، ورجعت إلى مصر ، وتسلمت عملى مدرسًا بكليتى . . أما زوجتى السابقة وأم طفلى الوحيد . . فلسوف تعجب حين تعرف أنها قد رجعت إلى انجلترا ، واستقرت هناك منذ سنوات مع زوج آخر سواى ، وأن هذا الزوج الجديد هو ابن خالتها ، التى كانت قد لجأت للإقامة لديها لعدة شهور ، حين أحضرت أمى للإقامة معى !

وقد كانت رغبة زوجتى السابقة فى البداية هى أن تصطحب معها طفلنا الوحيد ؛ للإقامة معها فى المهجر ، ولكنى تداركت ذلك فى الوقت الملائم ، واستخدمت حقى المشروع كأب فى منع سفر ابنى الطفل للخارج دون موافقتى ، واستقر الطفل فى النهاية عند جدته لأمه منذ ثلاث سنوات ، وبعد بضع مشكلات صغيرة فى البداية حول رؤيتى له ، أصبحت أراه الآن بانتظام ، وإن كنت مازلت أشعر ببعده عنى نفسيا وعاطفيا ، ربما تأثراً بإقامته لدى جدته . .

والآن يا سيدى فإنى أسألك السؤال الذى دفعنى ، لأن أحكى لك هذه القصة ، وهو أين جوائز السماء التى تبشر بها ـ كثيرًا فى كتاباتك ـ الصابرين على أنواء الحياة وتصاريف القدر ، ومن يلتزمون بالطريق القويم فى حياتهم ، ومن يبرون أباءهم وأمهاتهم ويحرصون على صلة الرحم ، ويتعاملون مع الحياة بأمانة ؟

لقد منحتنى الحياة ـ والحمد لله ـ الصحة والعمل الممتاز والمركز المرموق والدخل المعقول ، ولكنها لم تمنحنى بعد السعادة الشخصية ، والزوجة التى أسكن إليها وتسكن إلىّ ، وتشعرنى بما حققت لنفسى بكفاحى واجتهادى ، والتى تربت على كتفى حين أكون مهمومًا ، وتسعد بما أحققه لنفسى ولأسرتى من نجاح ؟ . . وتشاركنى بها فرحتى إذا فرحت ؟

ولقد أتيحت لى وأنا فى الغربة فرص عديدة للارتباط والزواج ، ولكنى أحجمت عن الإقدام عليها كلها ؛ لأنى خشيت أن أشرب كأس التعاسة الزوجية والفشل مرة أخرى للسبب نفسه ، وهو أننى لا أريد أن أتخلى عن أمى ، أو أقابل عطاءها وتضحيتها من أجلى بالجحود .

وأمى ترانى الآن والعمر يتقدم بى حتى شارفت الأربعين ، وهى تتحسر لوحدتى ، وتنبهنى إلى أن العمر يجرى بى ، وأن شبابى يذوى يومًا بعد يوم ، ولابد لى من شريكة حياة قبل فوات الأوان ، فإذا كانت هى العقبة الوحيدة فى سبيل ذلك فإنها كما ـ تقول لى دائمًا ـ تستطيع أن تعيش وحيدة مع شغالة فى شقة صغيرة ، أو أن تدخل إحدى دور المسنين ، وأنا الآن أستطيع ماديا بالفعل أن أوفر لها سكنا آخر على عكس الحال فى زواجى الأول ، لكن هل يكون هذا هو حقًا رد الجميل ، لمن قدمت لى كل حياتها وترملت ، وهى شابة ، ورفضت الزواج من أجلى ؟ . . وهل يكون هذا هو الوفاء . . والعطاء لمن أعطتنى كل شىء؟ .

إن حاجة أمى إلىَّ ليست فقط حاجة مادية أو حاجة خدمية ، تستطيع شغالة أو ممرضة فى دار للمسنين أن تقدمها لها ، وإنما حاجتها إلى حاجة عاطفية ونفسية وأعمق كثيرًا من ذلك ، فهى تحتاج إلى حبى لها وحنانى بها واهتمامى بأمرها ، وأنا أشعر بأننى أؤدى لها بعض دينها على حين أطعمها بيدى ، وحين أساعدها على تغيير ملابسها ، وحين أحنو عليها كما حنت علىَّ العمر كله . . فهل هذا خطأ يقضى علىَّ بالحرمان من شريكة حياة عطوف إلى النهاية ؟

لقد كان هاجسى ، وأنا فى الغربة وأمى فى مصر قبل أن استقدمها . . هو ماذا يحدث لها لو وافاها الأجل ، وأنا غائب عنها فى بلاد بعيدة . . ومن الذى سوف يواريها الثرى . . ويكرم خاتمتها ، ومن أجل هذا الهاجس أيضًا ، فضلت العودة والاستقرار بمصر لتعيش فى بلدها ، وبجوار من تبقى لها من أهلها بدلاً من الغربة . . فهل هذا خطأ يا سيدى . . وهل تنصحنى بتكرار التجربة مرة أخرى ؟ . . وإذا كانت هذا هو رأيك فكيف أتخلص من « الخوف » من الفشل مرة أخرى . . الذى يكاد يشل إرادتى ، كلما فكرت فى الارتباط من جديد ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

جوائز السماء فى أفق حياتك كثيرة يا سيدى . . وأجلهن الصحة والتوفيق فى الحياة العملية والعلمية ، لكن العين تثبت دائمًا على ما ينقص الإنسان ، وهى طبيعة بشرية ، لا حيلة لكثيرين فيها ، ولا بأس من الاستجابة لها من حين لآخر ، كحافز للسعى باعتدال إلى نيل ما ينقصنا بالسبل المشروعة ، إذا كان متاحًا أو مأمولاً فيه .

أما إذا حجبت عنا هذه الطبيعة البشرية الإحساس ، بما أجزلت لنا فيه الأقدار العطاء فى الجوانب الأخرى من حياتنا ، أو إذا استدرجتنا إلى هاوية السخط وجحود نعمة الخالق . . ونسيان الشكر عليها ، فلابد من وقفة مع النفس ، ومع هذه الطبيعة البشرية الظمأى ، دائمًا للمزيد من العطايا ، بحيث تعيدنا هذه المراجعة إلى جادة الصواب والعدل مع الحياة ومع أنفسنا ، فنحسن تقدير ما سخت علينا به المقادير ، ونشكر الواهب الأعظم عليها . . وقد نرجوه بعد ذلك ـ إن لم نستح من المزيد من الطلب ـ أن يتم علينا نعمته بما تهفو إليه أنفسنا وتتلهف .

وبهذا المنطق فدعنى أعيد صياغة تساؤلك الحائر ، فأتمثلك تقول : إن جوائز السماء قد انهمرت عليك فى موعدها الملائم جزاءً وفاقًا لبرك بأمك ، وأمانتك مع الحياة ، وكفاحك الجاد فيها ، فمتى يتم الله نعمته عليك بالجائزة الكبرى ، وهى السعادة الشخصية مع من تسكن إليها ، وتسكن إليك ، وتقدر فيك برك بأمك ، وتعينك عليه ، وليس العكس؟

ولا عجب فى أن تكون هذه هى الجائزة الكبرى التى يترقبها الإنسان ويهفو إليها قلبه ، إذ ما معنى النجاح والمال والمكانة الاجتماعية . . إن لم يسعد الإنسان فى حياته الخاصة بمن يطمئن إليه جانبه ، ويقاسمه حياته وأفراحه وأحزانه وانتصاراته الشخصية وعثرات طريقه ، ويشعر بوقع أنفاسه على وجهه ، حتى وهو بعيد عنه ؟

لقد قال أحد أعاظم المفسرين فى تفسيره للآية الكريمة « ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » ، إن

«الحسنة» المقصودة فى طلب الدنيا هى الزوجة الصالحة ، التى يسعد بها الإنسان ويطمئن إليها خاطره ، وهى بالتالى بمفهوم المخالفة الزوج الصالح بالنسبة للمرأة ، وبغض النظر عن اتفاق البعض أو اختلافهم مع هذا التفسير . . . فإنه يكفى فى حد ذاته للدلالة على الفهم الراقى لأهمية السعادة الخاصة فى حياة الإنسان ، وكيف أنها غاية الحياة ، التى تستحق أن يشقى الإنسان لبلوغها .

وجوابًا لهذا التساؤل « المعدل » . . . فإنى أقول لك : إن هذه الجائزة قد تهبط عليك فى أية لحظة من حياتك ، وأن العمر مازال ممدودًا أمامك بإذن الله ؛ لكى تحقق لنفسك كل ما تستحق من سعادة ومن أمان ، فإذا كانت هذه « الجائزة الكبرى » قد انحرفت عنك فيما مضى من حياتك ، فليس فى أفق السماء ما يقطع بأنها سوف تتخطاك فى قادم الأيام ، ومن واجبنا دائمًا ألا نفقد الأمل فى جدارتنا بنيل كل ما نستحق من جوائز السعادة الشخصية والسلام النفسى ، حتى ولو أبطأت عنا بعض الشىء ، بل وحتى أيضًا لو باءت بعض محاولاتنا الأولى للبحث عنها بالفشل والخسران ؛ فالسعادة ليست حكرًا فى النهاية على صنف سعيد دون غيره من البشر ، وإنما يصيب كل إنسان منها ما شاءت له المقادير وبجرعات متفاوتة ، وبحيث تتساوى غالبًا أقدارنا من أسبابها المختلفة فى النهاية ، وبغض النظر عما يناله بعضنا أكثر من غيره من هذه الأسباب دون تلك .

ومن واجبنا أيضًا ألا نغالى فى الإحساس « بالمفقود » على حساب

الموجود ، وألا نغالى فى تضخيم بعض مشكلاتنا ؛ لكيلا يستعصى علينا طلب حلها ، لأن مغالاتنا فى تقدير حجمها قد تعجزنا حتى عن محاولة التماس الحلول لها .

كما أنه من الحكمة أن نعترف لأنفسنا دائمًا بأن الحياة نجاح وفشل وهزائم وانتصارات ، وأن المهم دائمًا هو ألا يدير الانتصار رءوسنا ؛ فنتوهم فى أنفسنا ما ليس فيها ، وألا يحبطنا الفشل فنبخس أنفسنا قدرها . . ونعجز عن تكرار المحاولة وطلب النجاح .

وخير ما نفعل إزاء ما يعترض طريقنا من عثرات ، هو أن ننظر إليها . . كما ينظر الإنسان إلى تعاقب فصول السنة الذى نسلم به ولا ننزعج له ؛ لأنه من حقائق الحياة ، وليس أمرًا خارقًا بمألوف الطبيعة ، وأن نتطلع إلى النجاح بعد الفشل ، كما نتطلع إلى الربيع بعد الشتاء . . ونسعى إليه بلا يأس ، مؤمنين بأنه لا يقهر الفشل إلا الأمل فى النجاح والسعادة والسعى الجاد الدءوب إليهما .

ولو نظرت إلى حياتك بهذا المنطق لسلمت بأنك إنما قد صادفت فشلاً وحيدًا فى حياتك الموفقة حتى الآن ، حتى ولو كان هذا الفشل مؤلمًا ، وله ضحايا هو الطفل البرىء ، وهذا الفشل قد تكون له أسبابه الموضوعية ، التى لو استطعت تفاديها فى تجربة أخرى ، فإنه قد يسلمك إلى السعادة والأمان بإذن الله .

وعلى الرغم من حدة موقف زوجتك السابقة من والدتك ورفضها

المتشدد العجيب ، لأن يجمع بيت واحد بينهما ولو ليوم واحد ، فلست أتصور أن هذا الموقف اللاإنسانى من جانبها كان وحده السبب الوحيد لانهيار حياتك الزوجية معها ، وإنما يخيل إلى أن بذور الفشل ، قد تكون أبعد من ذلك وأعمق غورًا فمما لاشك فيه أن تعجل الاختيار بها ، تحت ضغط اقتراب موعد السفر فى البعثة ، قد أسهم فى ارتباطك بمن لم تختبر جديًا حقيقة شخصيتها ، وعمق استعدادها للمرونة والتفاهم معك ، حول وضع والدتك فى حياتك ، كما أن الفترة القصيرة التى عشتما فيها حياتكما الزوجية فى الغربة لم توطد بينكما من الروابط العاطفية والإنسانية ما يهيىء كلاً منكما للاستعداد للتضحية ببعض اعتباراته الشخصية إرضاء للآخر وحرصًا عليه ، ولقد شهدت أنت بأن هذه الفترة لم تخل يومًا واحدًا من المشاكل الصغيرة ، وفسرتها باختلاف الطباع وظروف الحياة الزوجية الجديدة ومؤثرات الغربة النفسية .

وأيًا كان التفسير ، فإنه يشير فى النهاية إلى أن الوفاق لم يتحقق بينكما أولاً لأسباب شخصية ، ثم أسهمت أنت بعد ذلك - ورغم إدانتى لموقف زوجتك السابقة الرافض لوالدتك على هذا النحو اللا إنسانى - فى تعقيد المشكلة من حيث لا ترغب ، حين دبرت استقدام والدتك إلى حيث تقيم فى الخفاء ، وكأنك تدبر جريمة بليل ، وليس عملاً إنسانيًا مشروعًا ، لم يكن ينبغى لك أن تتخفى به على أحد ، فكان خطؤك الأكبر هو تفضيل محاولة فرض الأمر الواقع على شريكة حياتك ، على اختيار طريق المواجهة والإقناع والتفاهم ، ولقد كان ذلك فى مقدورك فى

هذه الظروف . . وكان فى مقدورك تخييرها ، بين أن تتفهم دوافعك لذلك وتقبل به وتعينك عليه ، أو أن ترفضه فى المواجهة والعلن ، وتتصرف فى حياتها على ضوء ما اختارت لنفسها ، وينفصل كل منكما عن الآخر فى سلام ، وبلا خسائر إضافية أو ضحايا من الأطفال . ولو أنك كنت قد اخترت المواجهة بدلاً من التدبير فى الخفاء ، لربما كان الانفصال قد تم ، قبل أن تحمل زوجتك فى أحشائها ثمرة هذا الزواج المتعجل وتتفاقم المشكلة أكثر ، ولكن آفة الإنسان أنه قد لا يختار فى بعض الأحيان التوقيت الصحيح للاعتراف بالهزيمة والفشل ، والتصرف فى حياته على أساس ذلك ، مع أن التسليم بالهزيمة فى بعض الأحيان قد يكون أكرم له وأرحم به من نطح الصخر ، ثم التسليم بالفشل الذى لا مفر منه فى النهاية .

ولم يكن « الصخر » المقصود فى قصتك كما تتصور ، هو وجود والدتك فى حياتك وحرصك على أن تعيش معك ؛ حيث تقيم ، فكل ذلك مما يشرفك ويزيد من قدرك وليس العكس ، وإنما كان « الصخر » المقصود هو موقف زوجتك الأولى الرافض لذلك ، رفضًا لا تجدى معه محاولة للتفاهم أو الإقناع ، فكانت المحاولة معها منذ البداية عبثًا من العبث ، وكان الحل الأمثل هو الانفصال قبل الإنجاب فى هدوء ، مادامت قد تنكرت لما قبلت به أو ما لم تعترض عليه بوضوح قبل الزواج ، وما أكثر من يرين فى حدبك عليها فضلاً ، يحسب لك وليس عليك .
ولكن متى أتيح للإنسان على أية حال أن يتفادى أخطاء الحياة قبل

وقوعها ، وكل ما نتمناه دائمًا هو أن نتعلم من بعض أخطائنا ، وألا نكررها فى قادم العمر ، لكيلا نصبح كمن وصفه الأديب الفرنسى مونتانى بأنه « كالملاح الذى يطوف موانىء العالم؛ فيحسب الآخرون أن أسفاره قد جعلت منه إنسانًا مجربًا حكيمًا ، فإذا به يرجع من أسفاره كما كان قبلها ولم تفده تجاربه وأخطاؤه شيئا » .

وخلاصة القول هو أن وجود والدتك فى حياتك، ليس هو العقبة الكأداء فى طريق نيلك لسعادتك المشروعة بإذن الله ، ولن يكون كذلك ، حين تجمع الأقدار بينك وبين من ترحب بذلك ، وترعى فيها حقوق ربها ، كما أنى أؤيدك تماما فى ألا تتخلى أبدًا عن والدتك فى مثل ظروفك هذه ، وألا تقبل بما تعرضه هى عليك من أن تودعها إحدى دور المسنين، أو توفر لها سكنًا آخر ، وترتب لها من يخدمها فيه ؛ لأن هذا العرض حتى ولو كررته عليك والدتك كل يوم . . فإنه لن يكون معبرًا أبدًا عن حقيقة نفسها وآمالها فى الحياة ، بالنظر لكل ما أحاط بحياتها من ظروف وأحزان ، ذلك أنه عرض من نوع ما ، قد يتقدم به الإنسان أحيانًا لمن يحب بهدف إبراء الذمة وتذليل العقبات أمام سعادته . . فيؤذيه قبوله أو حتى عدم الاعتراض الجدى عليه ، بأكثر مما يمكن أن يؤذيه شىء آخر ، وهو العرض الذى يسعد صاحبه برفضه . . ويحزن لقبوله ، مع أن أحدًا لم يرغمه على تقديمه ، ولكنها النفس البشرية المليئة بالخفايا ونقاط الضعف الإنسانى والأسرار ، فلا تقبله على أية حال يا صديقى . .

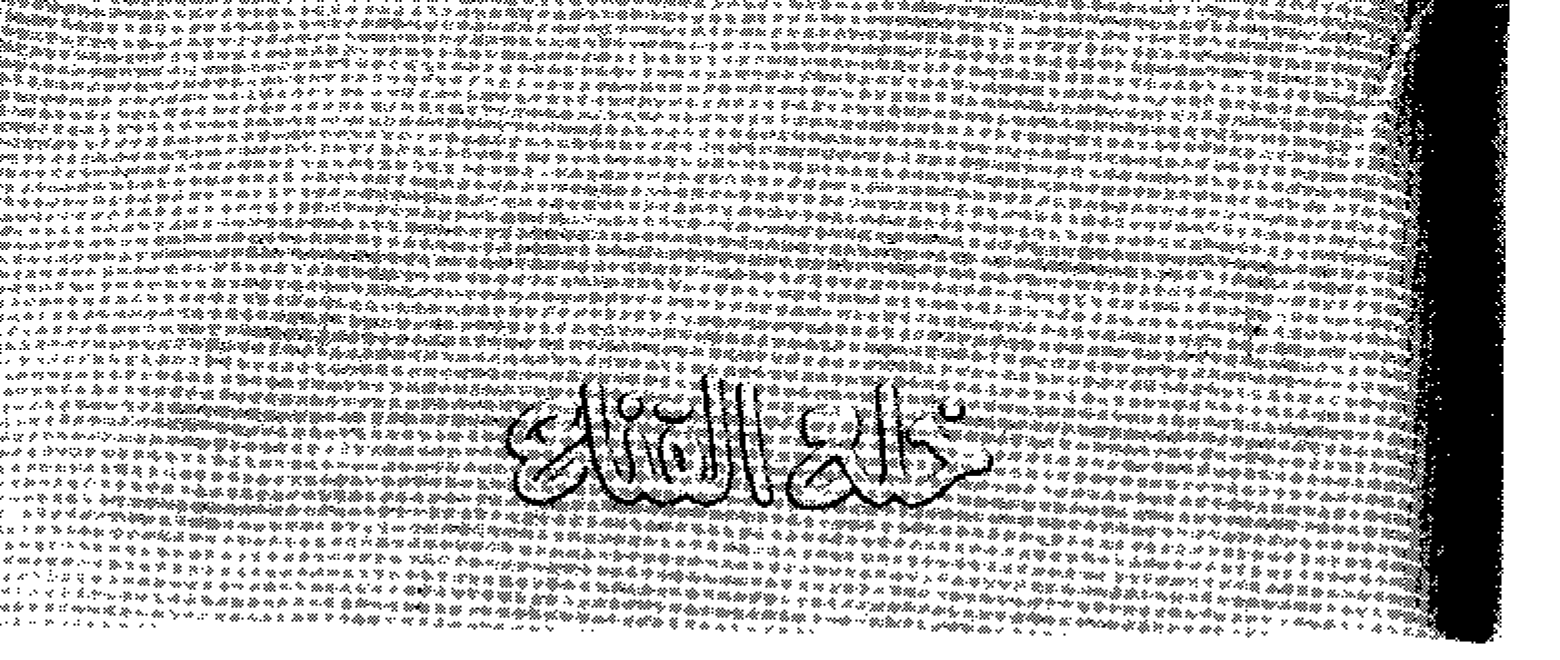
ولا تقصر فى « الانزعاج » لمجرد طرحه ، وإذا كانت هناك كثيرات قد يتخوفن من مشكلات الحياة المشتركة مع الزوج ، خاصة من يكون ابنًا وحيدًا ، لأم كرست له كل حياتها على هذا النحو ، فإن هناك كثيرات أيضًا ، تهديهن فطرتهن الإنسانية السليمة وطبيعتهن المتدينة إلى الرفق بمثل هذه الأم الوحيدة والترحيب بها والحدب عليها .

شىء واحد فقط ينبغى لك ألا تقصر فى توضيح نفسك فيه بأفصح لسان ، وهو أن تشرح لمن ترتبط بها هذه الظروف بلا خفاء وبغير اعتذار لأحد عن هذه الظروف ، لأن وجود والدتك فى حياتك ـ وأنت الابن الوحيد لها ـ ليس فيه ما يدعو للاعتذار عنه لأحد ، ومن يشاء فليقبل بنا على هذا النحو الصريح ، ومن يشاء فليرفض منذ البداية بلا عتاب ، فالغموض فى هذه النقطة قبل الارتباط ، قد يصبح سبب المشكلة فى المستقبل ، ومن المؤسف حقا أن يصبح بر ابن بأمه وحرصه على أداء واجبه الإنسانى تجاهها مجالاً للاعتذار ، أو طلب التضحية بالقبول له ، فإذا كنت قد تجرعت مرارة الفشل فى زواجك الأول ، فإن وجود صخرة واحدة فى مياه النهر ، ليس دليلاً على تعذر الملاحة فيه .

وإذا كان ابنك الطفل مازال بعيداً عنك عاطفيًا ونفسيًا ، فلعل له من صغر سنه . . والظروف غير الملائمة المحيطة به بعض العذر فى ذلك ، فلقد حرم من حنان أمه . . ولم يسعفه عقل الطفل فيه بأن يدرك مشروعية حقك فيه أو حرصك عليه ، وإنما ارتبط حرمانه من أمه فى وجدانه الصغير بسبب وحيد ، هو أن أباه قد منعه من السفر معها ! غير

أن الأيام لن تلبث أن تعلمه ما لا يعلم من حقائق الحياة ، ولن يطول به العهد ؛ حتى يستشعر حاجته الإنسانية إليك ، ويقترب منك ، و«يعفو » عن الظروف المؤلمة التى فرقت بينه وبين أمه . . أما قمة «الدراما» فى قصتك العجيبة هذه حقا نفسه . . . ، فهى فى عودة زوجتك السابقة إلى « المهجر » الذى غادرته غاضبة ، وهى تحمل ثمرة زواجكما فى أحشائها ، ثم زواجها من ابن خالتها المقيم هناك، فلعل خيوط هذه النهاية الدرامية العجيبة قد بدأت خلال فترة الشهور الستة التى قضتها فى بيت خالتها ، احتجاجًا على وجود والدتك ، فى بيت الزوجية فى الغربة .

وما أعجب ما تنسج خيوط الحياة من قصص وغرائب فى بعض الأحيان ، وما أضيق العيش ، لولا فسحة الأمل دائمًا فى أن ننال ذات يوم كل ما نستحق من سعادة وأمان . . ولولا قدرة هذا الأمل على أن يخطو بنا فوق مواقف الفشل ، العابر فى حياتنا؛ لكى نواصل « التنقيب » ، بلا كلل عن السعادة المفقودة . . والبحث عنها .



أنا يا سيدى فتاة فى السابعة والعشرين من عمرى ، بدأت قصتى ، التى أكتب لك عنها برحيل أبى فجأة عن الحياة ، منذ حوالى ثلاث سنوات ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ، وفى قمة نشاطه وحيويته .

ولأن أبى كان شخصية عامة ، ويشغل منصبًا حساسًا ومهمًا فى الدولة، وكان على الناحية الشخصية إنسانًا عظيمًا وحنونًا وصديقًا لأبنائه، فلم يقصر يومًا فى حقنا . . ولم يضايقنا مرة واحدة ، ولم يدعنا ننام متكدرين ذات مرة ، وقد افتقده كل من عرفه وعمل معه ، وقال عنه الجميع إنه قد عاش حياته نظيف القلب واليد واللسان .

ولن أطيل عليك فى الحديث عن هذه الفترة من عمرى ، ولكنى أقول لك إننى عقب رحيله عن الحياة ، فقدت توازنى لأقصى حد ، مع أنى الفتاة الجامعية الجميلة المحبوبة من الجميع والمتفوقة رياضيًا ، وذات الشخصية القيادية . وكنت قد عشت فترة الدراسة الجامعية ، دون أن

أسمح لنفسى بالدخول فى أية علاقات عاطفية ، ورفضت خطابًا يسيل لهم لعاب فتيات أخريات . . فرفضت ابن السفير ، وابن الوزير ، وغيرهما ، وكان منطقى فى ذلك هو أننى لن أتزوج إلا من أقع فى هواه ويملك عليَّ نفسى .

ولأننى رومانسية الطبع أكتب الشعر ، وأعزف الموسيقى ، وأبكى مع أفلام فاتن حمامه القديمة ، وبكيت لرحيل الموسيقار عبد الوهاب عن الحياة ، فلقد حلمت بفارس شهم قوى يحبنى وأحبه ، ويحنو عليَّ ، ويحمينى ويريدنى لشخصى ، وليس طمعًا فى فائدة أو طموح ، يتحقق له من وراء منصب أبى الكبير ، ولقد ظهر هذا الفارس فى حياتى عقب رحيل أبى عن الحياة ، وكان زميلاً لى فى العمل فارع الطول ، تقرب إلى بعد الوفاة بشدة ، وملت إليه ، وأسمعنى الكلام الجميل الذى كانت روحى تهفو إليه ، وراح يسهر الليالى يحدثنى فى التليفون عن تعلقه بى ، وكيف أنه إنسان محظوظ ؛ لأنه قد عثر أخيرًا على فتاة جميلة ومتدينة ، ولم تصاحب شابًا قبله ، وكان يبكى لبكائى ، حين أفتقد أبى ، ويعدنى بتعويضى عن حنانه الذى فقدته ، ويؤكد لى أن أمنية حياته الوحيدة هى أن يتزوجنى ، لكن مشكلته هى الإمكانيات المادية ؛ لأن أهله لن يساعدوه ـ كما قال ـ فى الزواج ، مع أنه ابن ناس محترمين ، ولديه شقة كبيرة ، فى ضاحية راقية ، وسيارة .

ولأننى كنت قد تعلقت به بشدة . . فلقد هونت عليه الأمر ، وشجعته على التقدم لخطبتى ، مع وعدى له بأن أذلل كل الصعاب ،

وبالفعل فلقد تقدم لأهلى ورفضوه للوهلة الأولى ، بدعوى أنه « ولد غير مريح » ، وبدعوى أن « من يشترى رخيصًا فإنه يبيع أرخص » ! لكننى لم استجب لأحد فى ذلك ، وصممت على قبوله ، وتمت الخطبة بالفعل ، وأرغمت والدتى على أن تكمل له ثمن الشبكة اللائقة بى ، وأنفقت كل ما معى من مال على شراء الأثاث المناسب .

وخلال مرحلة الاستعداد للزواج ، بدأت ألمس بعض بوادر البخل والتقتير فى شخصيته ، ولكننى لم أتوقف عندها طويلاً وفسرتها بقلة إمكانياته ، وألتمست له العذر فيها بأنه فى مرحلة التكوين وصعوبات البداية ، ومضيت فى طريقى سعيدة ، ووجدتنى أتساهل معه فى كل شىء كأننى منومة مغناطيسيا لإرادته ، بعد أن تعودت عليه وأحببته بكل كيانى ومشاعرى .

وجاءموعد الزفاف فأقمت حفلاً رائعًا ، لم يسهم هو فيه إلا بأقل القليل ، وانتهى الفرح البهيج ، وأنا فى قمة السعادة والفخر بالفارس الذى أحببته وفرضته على أسرتى ، وأغلقنا علينا باب غرفتنا ، فإذا بشخصية أخرى مختلفة تمامًا عن شخصية الفارس الذى أحببته تظهر للوجود ، وأنا مازلت بفستان الزفاف ، وإذا بأول عبارة يقولها لى هى : إيه شكلك المقرف ده ؟! .

ارتج على الأمر للحظات . . ولكننى تمسكت بالحلم الجميل ، ففسرت هذه العبارة بإرهاقه من حفل الزفاف . . ولكننى ما حدث فى

الأيام التالية لم يؤيد ذلك ، فلقد بدأت ملامح الشخصية الأخرى فى الظهور واحدًا وراء الآخر ، كأن شخصًا قد راح يخلع قناعًا يرتديه فوق وجهه ببطء ، فتظهر خلفه ملامح وجهه الحقيقية تدريجيًا ، وبدأ يهيننى ولا يتعامل معى إلا بالإهانة والعنف ، حتى فى لحظاتنا الخاصة منذ الأيام الأولى ، وراح يسألنى على الفور عن مجوهراتى وميراثى هكذا ـ عينى عينك ـ ويحاول الاستيلاء على كل مالدى من مال ، ولما يمضى على زواجنا أسبوع أو أسبوعان ؛ حتى كرهت نفسى وكرهت الدنيا ، وبدأت أتناول المهدئات وأنا مازلت فى شهر العسل ، كما بدأ الخوف منه يساورنى حين راح يحدثنى حديثًا غريبًا عن الموت ، «يبشرنى » بأننى سأموت قريبًا ، ولن يرثنى ؛ لأنه لا يعرف شيئا عن مالى وميراثى من أبى ، ولابد أن يعرف كل شىء تحسبًا للظروف ، ثم يسألنى أين أفضل أن أدفن بعد وفاتى ؛ لكى ينفذ رغبتى ووصيتى ، حين يوافينى الأجل المحتوم ، حتى تملكنى الخوف منه وخشيت أن يفعل بى شيئًا ، وتفاقم الأمر بينى وبينه بعد ذلك حين مد يده إلى مبلغ من المال ، كان فى درجى ، وحين واجهته بذلك كان يضربنى ، فكانت هذه هى ليلتى الأخيرة معه فى عش الأحلام ، التى لم تتحقق به ، وأمضيت الليل كله أبكى وأصلى ، إلى أن طلع الصباح ، فغادرت بيت الزوجية بعد ٣٥ يومًا فقط من الزواج .

ورجعت إلى أمى باكية ومنهارة ، فاحتضنتنى وهدأتنى ، ولم يتخل الله سبحانه وتعالى عنى بعد ذلك ، فلقد وقف إلى جوارى الأهل

وأصدقاء والدى ، الذين ساءهم ما تعرضت له ، وتم الطلاق وتنازلت للفارس السابق عن كل شىء ، ووجدت نفسى مطلقة ، وأنا أقترب من السادسة والعشرين من عمرى ، وتساءلت بعد أن أفقت من هذا الحلم الحزين عما جرى لى . . وأين الخطأ فيما فعلت ، وأنا لم أتزوج شابًّا من الشارع أو شابًّا لا أعرف جذوره العائلية ، وإنما تزوجت شابًّا جامعيًا ، والده له مكانته الاجتماعية ووالدته من أسرة كبيرة ، فأين الخطأ إذن فى الاختيار ، وكيف كنت أستطيع أن أتصور أن فى الحياة نماذج واقعية لما كنا نراه فى الأفلام القديمة من شخصية « الشرير » ، الذى يرفع حاجبه اليسرى لأعلى ، ويقول لأصدقائه أنه سيتزوج فلانة لكى يجردها من كل ما هو أمامها وخلفها .

وقد كنت أظن أنه لا وجود له إلا فى الأفلام . .

لقد علمت بعد الطلاق ، أنه كان يقول لأصدقائه عنى قبل الخطبة أننى بالنسبة إليه « فرصة » ، وأن « أبو سلطة » يقصد أبى ، الذى كان يمكن أن يخشاه قد رحل عن الحياة ، ولم يعد هناك ما يمنعه من تحقيق مأربه ؛ لأن « البنت وارثة وتحبنى » . . . وهكذا كان الحب والهيام والبكاء معى على التليفون كله من تكتيك الأفلام الرديئة ، فكيف كان لى أن أتخيل شيئًا من ذلك يا سيدى ، وقد عشت فى بيئة عائلية لا تضمر شرًّا لأحد ، وتعاملت مع صدقات وزملاء دراسة وعمل ، يخشون الله ، ويحلون الحلال ويحرمون الحرام ؟

لقد مضى الآن عام مرير على طلاقى من زواج ، لم يدم سوى ٣٥

يومًا ، وقد رفضت العودة إلى عملى السابق ، حتى لا تكون لى صلة بالفارس القديم سامحه الله فيما فعل بى ، وانتقلت إلى عمل آخر وارتقيت فيه ، والحمد لله ، وقد دخلت مجتمع عملى الجديد ، وأنا أخفى عن الجميع حقيقة أننى مطلقة ، ليس خجلاً من الطلاق ، لأن كل صديقاتى وأهلى يعرفون به ، وإنما لأنه ليس من المنطقى أن أدخل مجتمعا جديدا فأقدم نفسى لمن فيه قائلة : « هاى . . أنا مطلقة ! » وسامح الله من ظلمنى ، حتى احتسبت على هذه الزيجة الظالمة ، فى حين أننى أعتبر نفسى مازلت عذراء فى أعماقى ؛ لأننى لم أتزوج بالحسنى كما أمر الله بذلك ، وإنما اغتصبت معنويا ، وخدعت وحيكت لى مؤامرة حقيرة من مؤامرات أشرار السينما القديمة . .

نعم يا سيدى هكذا أشعر الآن ، بعد مرور عام على طلاقى ، فلقد أعطيت لمن خان وصدقت مع من كذب . . وأخلصت لمن خدع ، فأين الزواج الذى أمر به الله سبحانه وتعالى سكنا ومودة ورحمة من كل ذلك ؟

إننى أرجوك أن توجه كلمة إلى كل الفتيات ألا ينخدعن بمعسول الكلام من بعض الشبان ، كما انخدعت أنا ، وألا يتمسكن برأيهن فيما يراه الأهل بخبرتهم وحكمتهم خطأ . . كما أرجوك أيضًا أن تدعو ربك لى ولغيرى من الفتيات الطيبات ، أن يعرفن الحب الحقيقى ، الذى لا غش فيه ولا خداع ، والذى نهلت أنا وأمى وأختى من نبعه الصافى ، فى قلب أبى ، يرحمه الله ، كما أرجوك أن توجه كلمة أخرى إلى كل شاب يرى أن خداعه لفتاة بريئة «شطارة » بأن الله يمهل ولا يهمل . . ولسوف

يدفع الظالم ثمن ظلمه فى يوم من الأيام . . وأن تقرأ الفاتحة لأبى الحنون ، الذى لو كان على قيد الحياة لحمانى مما تعرضت له . . ولما جرؤ الظالم على ظلمه ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

بعض البشر ينظرون إلى الحياة بعين صياد ، يتحين الفرص للانقضاض على فريسة ، يحقق من ورائها طموحه المادى أو يحل بها بعض مشاكله ، وآفة هذا الصنف من البشر أنه يتوسل دائمًا لتحقيق أغراضه الوضيعة هذه بأنبل ما فى الحياة من قيم ومعان ومشاعر إنسانية ، ينتحلها أو يدعيها ، فيسىء إليها أبلغ الإساءة ، حين ينكشف الزيف ويسقط القناع ، ويتشكك الأبرياء من الضحايا فى هذه القيم الإنسانية نفسها ، وليس فيمن إدعاها وحده فى غمرة تأذيهم ، بما تعرضوا له من غش وخداع !

وتزداد ساحة القبح فى الحياة بما يورثه المخادعون لضحاياهم من سوء ظن بالأخيار إلى جانب الأشرار .

ولا مفر من أن نعترف فى البداية بأن غلبة الفكر المادى على عقول بعض الشباب ـ ذكورًا وإناثًا ، ، وإعلاءهم للقيم المادية فى الحياة ، على كل ماسواها من قيم وأهداف فى الحياة تجعلهم مسئولين عن مثل هذه المآسى ، ومن الإنصاف أن نقول إن معظم نماذج هذه الشريحة شديدة الإحساس بالقيم المادية ، هى غالبًا من أبناء الطبقة الوسطى ، أو الطبقة

الوسطى / العليا ؛ لأن تماس خطوطها مع خطوط الطبقة الأعلى ، يشعرهم بشدة بحرمانهم مما تتمتع به الطبقة العليا من ثراء ، ويلهب إحساسهم « بالحرمان » النسبى . . ، ويؤجج تطلعاتهم لحياة لا تؤهلها لها إمكاناتهم الطبيعية .

وحين تشتد الرغبة بالإنسان لأن ينال مالا تؤهله لنيله إمكاناته الطبيعية ، فإن الطريق ينفتح أمامه دائمًا لاستخدام الوسائل غير الطبيعية لنيل هذه الأهداف .

والمفكر الفرنسى مارسيل بروست يقول لنا : إن الإنسان ينبغى له أن ينمو كما ينمو النبات ، وليس كما يعلو البناء ، لأن النبات إنما ينمو من داخل نفسه ، وبما يتمثل داخله من غذاء وماء وهواء وضوء ، أما البناء فإنه لا يعلو من تلقاء نفسه ، ، وإنما يضاف إليه من خارجه بجهد الآخرين ، وليس بجهده هو !

ومأساة البعض قد تبدأ أحيانًا حين يتطلع لأن يعلو كما يعلو البناء ، بما يضاف إليه من خارجه . . وليس كما يرتفع النبات بما يتفاعل داخله ، ولا شك أن هذا الشاب الذى ارتبطت به كان للأسف ممن أفسدت عليهم هذه التطلعات المادية الحادة نخوتهم ورجولتهم ورغبتهم فى الاعتماد على النفس ؛ لتحقيق أهداف الحياة ، إلى الحد الذى أظهرت لديه بعض النزعات السادية لتخويفك من الموت ومحادثتك عن « ميراثه » منك ، وأنتما مازلتما فى شهر العسل !

والمؤكد أيضًا أنه لم يكن يبعث على الارتياح أو الثقة منذ البداية بدليل نفور أهلك منه ، بمجرد رؤيته ، وتشككهم فى نياته الاستغلالية تجاهك . ومع ذلك فلقد تمسكت به فى وجه اعتراض الجميع ، ورفضت أن تسمعى لأحد إلا لنداء القلب وحده ، وأرغمت والدتك على أن تكمل له ثمن الشبكة ، وأنفقت كل ما معك على شراء الأثاث . . وواصلت الطريق معه إلى نهايته ، رغم ما تبدى لك من بعض بوادر الإحساس المادى العالى لديه فى أواخر مرحلة الخطبة .

وليس فى مساندتك المادية لمن تختارينه لمشاركتك الحياة خطأ فى حد ذاته ؛ إذ لا بأس بأن يعين المحبون الصادقون أنفسهم على اجتماع الشمل ، وتخطى صعوبات البداية ، وإنما الخطأ الجوهرى ، الذى لم تدركى أبعاده إلا بعد فوات الأوان ، هو فى صم الأذن نهائيًّا عن نصيحة الأهل . . ورأيهم فيمن ترغبين فى أن يشاركك حياتك ، ورفض هذا الرأى حتى من قبل الاستماع إليه ، استجابة لنداء العاطفة وحدها .

وأكثر أسباب الشقاء الإنسانى ترجع إلى رفض الرأى الآخر ، حتى قبل مجرد الاستماع إليه ؛ لأنه لا يتفق مع هوى النفس ، وما يرغبه القلب ، بدلاً من التفكير فيه بروية وتقليبه على وجوهه المختلفة ، ومحاولة تبصر أوجه الحق فيه بغير تأثر بهوى النفس فى ذلك ، سواء قبلنا به بعد ذلك أو رفضناه .

ولأن علم الحياة مؤسس ـ أصلاً ـ على التجارب . . تمامًا كعلم الطب . . كما يقول لنا الأديب الفرنسى مونتانى ، فلقد أثبتت لك تجربة الأيام

وحدها صدق بصيرة أهلك ، وصواب حكمهم على شخصية فتاك ، ولكن آفة هذا « العلم » أنه قليلا ما يكتسب أحد دروسه ، دون أن يكتوى بألم التجربة الشخصية وغنائها .

ولأنه مما يفيد الإنسان فى تجنب عثرات المستقبل أن يعرف لماذا تعثرت به الخطى فى الماضى ، فلابد أن تعرفى أن من أهم أسباب سواء اختيارك لهذا الشاب ، ونجاحه فى التأثير عليك ـ إلى حد أن أحسست كما لو كنت منومة مغناطيسيا معه ـ هو أنك قد عرفته ، واخترته فى مرحلة من العمر ، لم تكونى مؤهلة خلالها نفسيا ووجدانيا لحسن الاختيار ، وهى مرحلة انعدام الوزن ، التى تعرضت لها بتأثير الصدمة المعنوية الكبيرة لرحيل الأب ، وافتقاد كل ما كان يمثله فى حياتك .

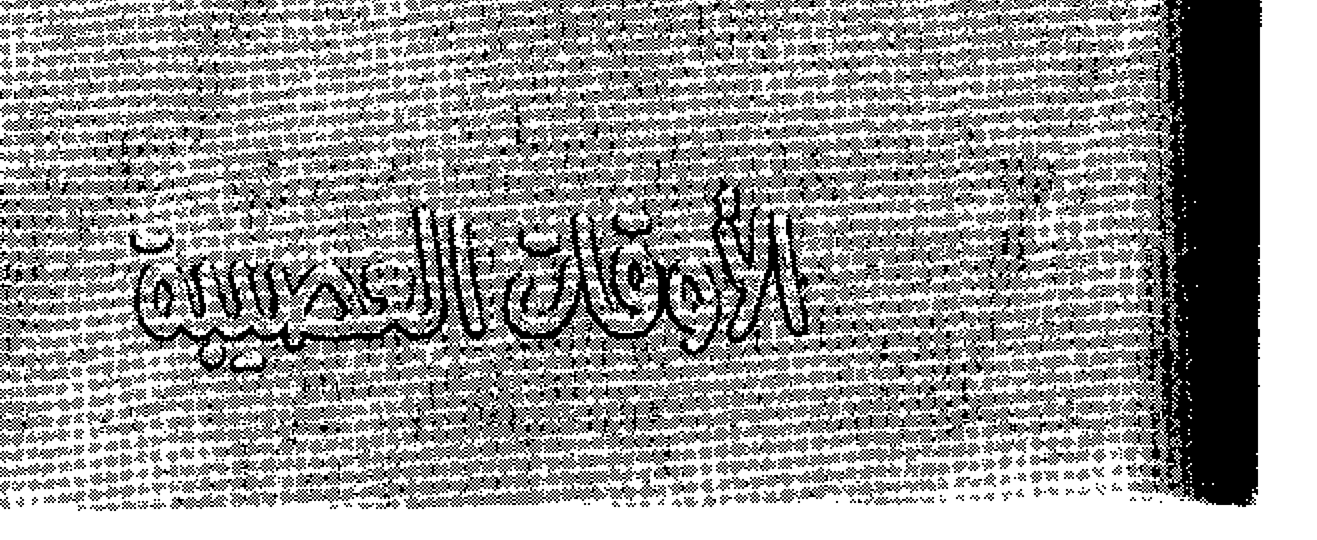
ففى أوقات المحن الشخصية المزلزلة ، لا يكون الإنسان يا سيدتى مؤهلاً لاتخاذ القرارات المصيرية الصائبة فى حياته ؛ لأنه فى حالة ضعف نفسى شديد ، تؤثر على أحكامه وتغير من سلم أولوياته تغيرًا لا يدوم ، وقد تدفعه هذه الحالة من الضعف النفسى لالتماس الأمان والتعويض من أى سبيل ، فإذا بهتت مؤثرات المحنة ، وتخفف من مؤثراتها ، استعادت أولوياته ترتيبها السابق قبل المحنة ، وتطلعت نفسه إلى ما كانت تتطلع إليه من قبل ، تمامًا كما يشتد العطش بالإنسان فى الصحراء ، فيصبح أمله الوحيد فى الحياة فى هذه اللحظة هو جرعة الماء .. ولو لم تكن زلالا ، وليس المجد ولا الثراء ولا النجاح ولا الوجاهة الاجتماعية ، ولا أى شىء آخر ، فإذا ارتوى ورجع إلى بر الأمان ،

اعتدلت من جديد الأولويات لديه .. وسعى إلى أهدافهالطبيعية فى الحياة ، وتراجعت أهمية جرعة الماء إلى مكانتها العادية لديه ، وأنت يا سيدتى كنت خلال هذه المحنة فى حاجة ملحة إلى جرعة الحنان العاطفى ، التى افتقدتها برحيل أبيك عن الحياة .. فأخترق هذا الشاب حصونك من أضعف نقطة فيها ، وحدث ما حدث .. والدرس المستفاد من ذلك هو ألا نتخذ بعض قراراتنا المصيرية فى أوقات الضعف النفسى والمحن الشخصية الأليمة ، وأن نؤجل هذه القرارات دائمًا إلى ما بعد النقاهة النفسية منها .

وعلى أية حال ... فلقد تلطفت بك الأقدار كثيرًا ، حين أعمت بصيرة هذا الشاب عن بعض أسرار « الصنعة » فغفل عما ينبغى أن يتحلى به الصيادون المحترفون من صبر وطول أناة ، لكى يصيبوا الهدف فى مقتل ، فبادر على عكس ما تقضى به أصول الصنعة بخلع القناع عن وجهه الحقيقى ، بمجرد انطفاء أضواء الفرح .. وبادر على الفور بالكشف عن انتهازيته وماديته ورغبته الفاضحة فى استغلالك وابتزازك ماديًّا ، فأعانك من حيث لا يدرى على النجاة بنفسك من أسره ، قبل أن تحملى منه وتنجبى وتزداد مشكلتك تعقيدًا .

وصبر عليك بعض الوقت ، لكى تضطرى إلى عشرته ومحاولاته الرخيصة لاستغلالك لسنوات وسنوات بسبب حرصه على مستقبل الأطفال .. أو تهيبًا لتمزيقهم نفسيًّا .. ولكن من التدابير الالهية أيضًا ما يدفع به الله سبحانه وتعالى عن الصادقين أذى الآخرين ، ويحميهم مما

يمكرون هم فيه ، فحمدًا لله أن خرجت من هذه المحنة بأقل الخسائر الإنسانية الممكنة ، ويبقى بعد ذلك أن تستفيد الأخريات من درس رسالتك فى عدم إهدار الرأى الآخر ، الذى لا يوافق هوى النفس ، وفى ضرورة تأمله طويلا ، والتفكر فيه بعقل مفتوح قبل اتخاذ القرار ، أما الصيادون فليس عندى ما أضيفه إلى ما قلته أنت لهم . . سوى أن الإمام مالك بن أنس يقول لنا « قد ينتقم الله من ظالم بظالم . . ثم ينتقم من كليهما » . . وشكرًا لك على رسالتك . . والسلام . .



أنا رجل فى الرابعة والأربعين من عمرى . . أعمل موظفًا بإحدى الهيئات ، نشأت بين أبوين طيبين فى أسرة بسيطة ، ولكنها متحابة ومتدينة ، فتشربت منذ صغرى حب أخوتى وأبى وأمى والجيران الطيبين والحياة ، ولاحظت منذ صغرى «الود» والتعاطف والاحترام ، الذى يجمع بين أبى وأمى .

وكان أبى موظفاً حكوميًا بشهادة متوسطة، ورجلاً مشهوداً له بالحكمة والطيبة وحسن معاملة الناس ، وقد كافح مع أمى كفاحًا مجيدًا لتعليمنا حتى تعلمنا وتخرجنا نحن الأبناء الأربعة ، وتفرقت بنا سبل الحياة ، فتزوج أخى الأكبر ، واستقر فى مدينة ساحلية ، وتزوجت أختى التى تليه ، وسعدت بحياتها الزوجية بالقرب منا ، وتزوجت أختى الأخرى عقب تخرجها فى أحد المعاهد وانتقلت مع زوجها إلى عاصمة احدى المحافظات .

ثم جاء الدور علىَّ أنا آخر العنقود كما يقولون فتخرجت فى كليتى وعملت ، وكنت قد ارتبطت عاطفيًّا بابنة صديق عزيز لأبى . . كنت أراها فى زياراتنا العائلية ، فتفاهمنا بلغة العيون فى البداية ، ثم بالكلام المختطف خلال الزيارات ، وتعاهدنا على الارتباط بمجرد أن تسمح ظروفى ، وكان مبدأ أبى فى هذا الشأن ، هو أنه يشترط انتهاء الدراسة والعمل فقط ثم لا يتدخل بعد ذلك فى اختيار أبنائه لشركاء الحياة أو يفرض عليهم شيئاً ، ويكتفى بأن يراجع الابنة أو الابن فى اختياره لشريك العمر ؛ ليتأكد من جديته فيه ومن حسن الاختيار، ثم يتنهد بعد ذلك قائلاً فى ارتياح : على بركة الله ، ويصارح الخطيب بواقع الحال، ويعلنه بما يستطيع الإسهام به فى تكاليف الزواج ، ولا يفرض عليه شيئاً .

وهكذا . . تزوجت شقيقتاى بلا مشكلات كبيرة ، والحمد لله ، وباع أبى من أجلهما قطعة أرض للمبانى صغيرة، كان قد اشتراها فى بداية حياته الوظيفية ، بالتقسيط عن طريق العمل ، وأسهم بثمنها فى جهازهما . . وأعان أخى الكبير بمبلغ بسيط ، دبره عن طريق استبدال جزء من معاشه ، وحين جاء دورى ، لم أفاتحه برغبتى فى الزواج تحرجًا منه ، ولعلمى بأنه قد أصبح بعد زواج أختوى «على الحديدة» . . كما يقولون ، وإنما فاتحت صديقه والد فتاتى نفسه ووسَّطته هو لديه ، وضحك صديق أبى رحمة الله عليه طويلاً ، ووعدنى بالمساعدة وصارحنى بأنه لم تخف عليه نظراتى وإشاراتى لابنته طوال الفترة السابقة، ولم يعترض لثقته فى أخلاقى وتدينى ، وفى أخلاق ابنته أيضاً .

وبالفعل قام هو بدور «الخاطبة» مع أبى ، ولم يلتفت لاعتراضه بصغر سنى وانعدام إمكاناتى المادية ، وقال لأبى إنه لم يبق له بعد زواج أبنائه ، سوى هذه البنت ، وإنه يرحب بإقامتى معه فى مسكنه ، إلى أن تتحسن الأحوال ، وأستطيع الحصول على مسكن مستقل .

ولم يعترض أبى طويلاً ، وإنما جاء الاعتراض هذه المرة من أمى التى تمسكت بأنه إذا كان لا مفر من أن نقيم مع إحدى الأسرتين ، فالأكرم هو أن نقيم مع أبى وأمى ، ولكن أبى بحكمته أقنعها بهدوء وبصبر بأن الأفضل ، هو أن أقيم أنا مع أسرة فتاتى تجنبًا للمشكلات ، التى قد تحدث بين أم الزوج وزوجته ، وقال لها إن أم الزوجة تحرص فى العادة على نجاح زواج ابنتها ، فتجامل زوجها من أجلها ، وتساعدها على ذلك طبيعة العلاقة بينهما ، حيث لا تشعر بالغيرة منه على عكس الحال بالنسبة لأم الزوج ، وبهذا تنتفى أسباب المشكلات! . .

واقتنعت أمى أخيرًا وسلمت بحكمة أبى ، وكنت قد بدأت فى الاشتراك فى عدة جمعيات للادخار ، وأقرضنى شقيقى الكبير مبلغاً بسيطاً ، فتمت الخطبة بسلام ، وتزوجت وأنا فى السادسة والعشرين من عمرى ، وفتاتى فى الثالثة والعشرين . . بغير جهاز سوى غرفة نوم جديدة، وبدأت حياتى الزوجية معها .

وسعدت بزوجتى إلى أقصى حد وعشنا فى بيت صهرى خمس سنوات، حتى تمكنت من الحصول على مسكن مناسب، وانتقلت إليه، وأنجبت خلال تلك الفترة ولدين وبنتا ، وحرصت منذ استقلالنا

بمسكن خاص على قضاء أمسية الخميس مع صهرى وأم زوجتى اللذين أحببتهما دائمًا ، وحفظت لهما الجميل ، وبعد قضاء الليلة عندهما نقضى يوم الجمعة كله من الصباح إلى المساء مع أبى وأمى ؛ فيسعدان بى وبزوجتى وأحفادهما .

ومضت الحياة على هذا النحو هادئة فى أغلب الأحوال ، ولم تشهد حياتى مع زوجتى أية مشكلات جدية ، ولم تعرف حياتنا سوى المشكلات العادية البسيطة ، التى لا تترك مرارة فى النفوس ، وكان يكفينى إذا غضبت من زوجتى لشىء ، أن أهددها بأننى سأشكوها إلى «عمى» أو إلى «طنط» ، فتتراجع عن عنادها بعد قليل ، وبطريقة كانت تثير ضحكى ، وتذهب غضبى ، فأضحك وأنسى ما غضبت منه .

وكذلك كانت تفعل هى معى فى المناسبات القليلة التى اختلفنا فيها ، ولم يحدث أن شكتنى مرة إلى أمها أو والدها ، رحمه الله ، وقد ساعدنا على ذلك أن الحب لم ينطفىء بيننا أبداً بعد الزواج ، وإنما راح يتعمق ويتزايد ، وساعدنا أيضاً أن زوجتى ذات طبيعة مرحة ، ولا تحب النكد ، كما أن نفسها راضية بكل شىء ولا « تنظر » إلى أحد ، ولا يهمها من الحياة شىء إلا أن تكون أوقاتنا سعيدة ، وأبناؤنا بخير والصحة جيدة ، كما أن دمها خفيف بطبيعتها ، ومن النوع الذى يحب الناس والحياة بصفة عامة ، وتفترض الخير فى كل إنسان تتعامل معه إلى أن يثبت لها العكس ، وقد دأبت إذا تعرفت بجارة جديدة أو صديقة ، على أن تقدمنى إليها بفخر على أننى « الولد » الذى ضحك عليها ، وأوقعها فى شباك حبه ، بالنظرات والإشارات ، وهى « طفلة » عمرها ١٧ سنة !

فمضت سنوات حياتنا معاً فى سعادة وهدوء . . . نتعاون على أمور الحياة ، ونتشاور فى كل شىء ، ونرضى بكل شىء ، ولولا مرض ابننا الأكبر منذ صغره وترددنا به باستمرار على الأطباء ، لما وجدت فى حياتى شيئا أشكو منه والحمد لله . .

وقد بدأت قصة هذا المرض معه ، وهو فى عامه الخامس ، وحار فيه الأطباء ؛ فشخصه البعض بأنه حمى روماتيزمية ، ونفى البعض الآخر ذلك ، ولكن الحياة مضت بنا رغم ذلك هادئة ، ولم ينغص مرض ابنى علينا حياتنا ، فلقد طمأننا أكثر الأطباء إلى أن حالته ستتحسن مع تقدمه فى العمر ، واشتداد عوده وزيادة مناعته ، وبالفعل فقد كان يعيش حياته بطريقة طبيعية ، مع مراعاة عدم مشاركته فى الألعاب العنيفة ، أو ممارسة رياضة شاقة مثل كرة القدم ، مثلا ، ولم يكن هو بطبيعته يميل لمثل هذه الألعاب ، فلم نعجز عن مراقبته وإلزامه بالاعتدال فى اللعب وبذل المجهود ، وساعدتنى زوجتى على ذلك بأن قررت الاستقالة من عملها ، والتفرغ للبيت ، ولهذا الطفل المريض بالذات ، مكتفية بإعطاء بعض الدروس الخصوصية لأبناء الجيران والمعارف فى البيت فى مواسم الامتحانات .

وتقدم ابنى فى دراسته بلا مشكلات كبيرة ، واعتاد شقيقه الأصغر أن يحمل عنه بتلقائية حقيبته المدرسية ، وأسعدنى أن رأيت أبنائى الثلاثة ، وكأنما قد انتقلت إليهم ـ بطريقة سحرية ـ عدوى الحب ، الذى أورثنى إياه أبى وأمى ، للإخوة والأبوين ، فكانت أوقاتنا العائلية هى أجمل أوقات الحياة عندى ، واتهمت زوجتى بأنها قد أورثت أبناءها شيئين

أساسيين ، هما : أولا حب المرح وكراهية المشكلات والأحزان : وثانيا ، العاطفة المفرطة فى التعبير عن المشاعر ؛ فالقبلات لا تتوقف بينها وبين أبنائها كل يوم وكل ساعة ، بمناسبة وبغير مناسبة ، كما ربتهم منذ صغرهم على أن يستقبلونى عند العودة من العمل ، وكأننى عائد من سفر !

فإذا فاجأت الأزمة ابننا الأكبر ، واستسلم للفراش لبضعة أيام ، ران الهدوء على البيت ، وإن لم يفقد بهجته ، والتفت الأسرة حول فراشه حتى يستعيد قواه ويرجع للمدرسة . ولست أغالى إذا قلت إنه حتى فى هـذه الأوقات العصبية ، لم تكن زوجتى تفقد مرحها ولا خفة دمها ، ولا إقبالها على الحياة ، وإنما كانت تمرض ابننا وتنفذ تعليمات الأطباء بدقة ، وتداعبه وتمزح معه ، ومع أخويه ومعى بطريقتها المعتادة .

ثم تطورت حالة ابنى تطورًا خطيرًا فجأة ، وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، فأصيب بالإغماء وهو واقف فى طابور الصباح بالمدرسة ، وتم نقله للمستشفى ، فعرفت حياتنا أول لمحة كدر حقيقية ، وأول خوف حقيقى ، والتففنا حوله بالمستشفى فلم يشف الأطباء غليلنا ، ولم يطمئننا أحد على قرب تحسن حالته كما كان يحدث فى المرات السابقة ، وأمضى ابنى فى المستشفى أسبوعين ، ورجع إلى البيت ، واستغرقت نقاهته من الأزمة هذه المرة فترة طويلة ، فتعذر عليه دخول امتحان نهاية السنة الدراسية ، ولم نأبه كثيرا لذلك ، وكان كل همنا هو أن يستعيد صحته ويرجع للحركة والنشاط من جديد ، ثم انتهت فترة النقاهة ،

وغادر البيت إلى الشارع وأصدقائه فيه ، ولكنه لم يرجع لطبيعته السابقة أبدًا ، للأسف ، وأصبح كالخيال يكره الحركة ويجهده أى مجهود .

وخلال هذه الفترة رأيت زوجتى تفقد ابتسامتها الدائمة ، وتعزف عن المرح والمداعبة ، ولم تطل المخاوف كثيرًا فلقد انتكست حالة ابنى الصحية مرة أخرى ، ودخل المستشفى ، وطال بقاؤه فيها هذه المرة شهرًا كاملا ، ثم استرد الله سبحانه وتعالى وديعته الغالية ، وخيم الحزن والصمت والاكتئاب على بيتنا ـ الذى كان سعيدا ـ لأول مرة . .

ولست أريد أن أطيل عليك فى وصف حالنا ، بعد أن دهمتنا هذه الكارثـة ، ولكنى سأقـول لك فقط إننى عـرفت الألم الحقيقـى ، الذى لا يعادله ألم آخر فى الدنيا خلال هذه الفترة الكئيبة من حياتى ، وأننى وزوجتى قد فقدنا توازننا تماماً أمامها ، وأظلمت مصابيح الدنيا فى عيوننا ، واستعنا بالصلاة والصبر على أحزاننا ، واصطحبت زوجتى لأداء العمرة ، ورجعنا عاقدى العزم على أن نسترجع إقبالنا على الحياة ؛ من أجل ابننا وابنتنا .

وبدأت أنا بالفعل بعد ستة أو سبعة شهور فى استعادة توازنى بعض الشىء ، وساعدنى على ذلك الاستغراق فى العمل ، وإحساسى بالمسئولية عن زوجتى وابنى وابنتى ، ورغبتى فى إعادة الضوء إلى حياتهم ، التى أظلمت فجأة ، واستكمال المسيرة معهم . أما زوجتى . . . فإنها لم تنفذ ما تعاهدنا عليه ، ونحن نتعلق بأستار الكعبة

باكين . . ولم تستعد توازنها أبدًا مرة أخرى ، رغم مرور ما يقرب من عامين على رحيل الابن الغالى ، بل لقد تمادت فى الحزن ، والصمت ، والاكتئاب ، والعزلة والانطوائية ، وكراهية الخروج من البيت ، أو زيارة الأهل أو الأصدقاء ، وممارسة أى شىء كانت تمارسه من قبل ، حتى الدروس الخصوصية كرهتها وتوقفت عن إعطائها ، رغم توسلات زوجات الأصدقاء والجيران لها ، لكى تشغل بها نفسها .

ولأول مرة وجدت من زوجتى التى عاشرتها ١٨ عاما ، الجفاء وحدة الطبع والعصبية الزائدة فى معاملتى فى بعض الأحيان ، وقد بدأت هذه المعاملة حين حاولت الترويح عنها ، بعد مرور الذكرى الأولى لابننا ، ودعوتها للخروج معى وحدنا ، على أن نترك ابننا فى بيت جدتها ، وقضاء السهرة فى حفلة يقيمها النادى فى عيد الربيع ، فرفضت ذلك بحدة واستنكرت الدعوة من الأصل ، واتهمتنى « بالروقان » ، وبأننى قد « نسيت » وأتعجل عودة الحياة إلى طبيعتها ، وكأن ابننا لم يوار الثرى ! . .

وراحت تكيل لى هذا الاتهام القاسى ، وتدلل عليه بأننى قد رجعت للخروج فى المساء والذهاب إلى شلة الأصدقاء للعب الطاولة فى المقهى من حين لآخر ، وبأننى قد رجعت للاهتمام بملابسى ، وحلاقة ذقنى جيدًا والتعطر بماء الكولونيا فى الصباح قبل الذهاب للعمل ، وبأننى أتابع المسلسلات العربية فى التليفزيون إشفاقا على الأبناء بعد بضعة أسابيع من الوفاة .

وعبثًا حاولت اقناعها بأننى لم أنس ولن أنسى ، ولكن الحياة يجب أن تستمر مهما حدث ، واننى أريد لها أن تخرج من أحزانها ؛ حتى لا تصاب بالمرض وتكون خسارتنا فيها مضاعفة ، لكن هيهات أن تقتنع .

ثم غلبتنى مشاعرى ، وأنا أدفع عن نفسى تهمة الروقان والنسيان وبكيت فشعرت زوجتى بقسوتها على . . . واعتذرت لى ، ومسحت دموعى ، وقبلت رأسى ، وطلبت منى أن أصبر عليها حتى تستعيد توازنها ، فقبلت يدها وأقسمت لها بأننى لا أريد شيئاً ، إلا أن أخفف عنها حتى لا تذبل صحتها ، ووعدتنى بالاستجابة لمحاولاتى بعد فترة من الصبر .

لكنها لم تفعل يا سيدى ، ولم تستجب ، ومضت الأمور فى الاتجاه المعاكس ، وازداد بيتنا صمتًا وحزنًا واكتئاباً ، فحتى ابنى تعلما الصمت الطويل ، ولم يعودا يمرحان ، كما كانا يفعلان ، وكلما حدثت زوجتى فى الخروج من أحزانها ، وتغيير هذا الجو القاتم . . ثارت علىّ ، واتهمتنى بأننى لا أهتم إلا بنفسى وباحتياجاتى العاطفية كزوج ، وبأننى أريدها أن ترجع لطبيعتها السابقة فى وقت قصير ، وكأن حياتها لم تتزلزل بما حدث ، ثم تقول لى بانفعال إنها لم تعد تصلح لأن تكون هذه الزوجة مرة أخرى ، وإذا كان ذلك يزعجنى ، ولا أستطيع احتماله ، فلأبحث لنفسى عن امرأة أخرى ، لم تفقدها الأحزان رغبتها فى الحياة !

وبعد أن كانت تسترضينى بعد كل مرة تجرح فيها مشاعرى على هذا

النحو ، توقفت عن ذلك ، وبدا وكأنها لا يهمها أمرى فى شىء ، وازدادت بعدًا وجفاءً ولا مبالاة بى . . وأهملت نفسها ، فذوى جمالها ، الذى كان يفتننى وازداد نحولها ؛ حتى أصبحت « جلدًا على عظم » ورفضت زيارة الطبيب بإصرار للعلاج ، وشكوتها لأمها فلامتها بشدة على ما تفعله معى ، وأنا الحريص عليها ، ولكنها لم تتغير .

وأنا الآن فى حيرة من أمرها ومن أمرى ، ولا أصدق أن الحب العظيم الذى كانت تحمله لى قد انتهى فجأة هكذا ، خاصة أنه لا ذنب لى فيما حدث لابننا ، ولم أقصر معه فى العلاج ، واعتصرنى الحزن لرحيله ، لكننى من ناحية أخرى لا أستطيع احتمال استمرار الحياة هكذا للأبد ، وأنا أفتقد الزوجة الطيبة التى أحببتها منذ كان عمرى عشرين سنة .

فهل صحيح أنها « كرهتنى » ، ولم تعد ترغب فى العيش معى ، كما قالت لى ذات مرة فى أحد انفجاراتها الأخيرة ، حين اقترحت عليها مجرد اقتراح أن تخلع السواد وتستبدله بالألوان القاتمة ؟ . . أم أن ذلك كان مجرد انفلات فى الأعصاب لا يعتمد عليه ؟ . .

إنها تقول لى أنه من المحال أن ترجع إلى طبيعتها السابقة ذات يوم من الأيام ، بعدما مرت به من هذه الفترة العصبية ، وأن علىّ أن أوطن نفسى على قبول هذا الأمر الواقع ، إذا شئت استمرار الحياة معها ، فإذا لم أشأ ذلك . . . فإنها لا تعترض على زواجى من أخرى لو رغبت . . فهل هذا الوعيد يعبر عن حقيقتها فعلا ، أم أن ما تقوله لى أمها صحيح ، وهو

أنها ما زالت كالفرخة المذبوحة ، تتخبط فى الكلام والتصرفات ولا تعنى ما تقول ؟

إننى لا أريد الآن من الحياة شيئًا ، بعد أن فقدت ما فقدت ، سوى أن أستعيد زوجتى ، وأن تستمر الحياة بنا وبأبنائنا فى طريقها المرسوم ، ولقد سلمت بقضاء الله وقدره كإنسان مؤمن ، ولكنى لم « أنس » كما تتهمنى زوجتى ، ولا يمنعنى ذلك من الرغبة فى استمرار الحياة ؛ حتى لا يتأثر أبنائى بهذا الجو القاتم للنهاية . .

فهل أنا على حق فى ذلك يا سيدى . . وبماذا تنصحنى أن أفعل مع زوجتى . . هل أستجيب حقًا لما تطلبه و « أيأس » منها نهائيًا ، و«أنظر» إلى غيرها من النساء ، وكيف أستطيع ذلك ، وأنا ما أحببت فى حياتى امرأة سواها ، ولا أريد لأبنائى إلا أن ينشأوا بيننا معززين مكرمين، كما نشأت أنا وإخوتى بين أبى وأمى ؟ . .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

لا يا سيدى لا تيأس منها ،ولا تكف عن محاولاتك معها لاستعادتها وإنقاذها ، مما تتردى إليه بغير وعى من هاوية الاكتئاب اللعين ، فلقد أعانت أخطبوط الاكتئاب على أن يلف حولها أذرعه ، برفضها للتجاوب معك ، والاستجابه لدعوتك لها ، بالخروج من بئر الأحزان ، والعودة للتفاعل مع الحياة من جديد ، والانشغال بشواغلها عما لا عائد له إلا مضاعفة الآلام وزيادة الخسائر .

ومن واجب الإنسان دائمًا تجاه ربه ونفسه وأعزائه ألا يستسلم لداء عضال ، يتسلل إليه على مهل ويتمكن منه ، دون أن يبدى أية رغبة فى النجاة ، أو يسمح للآخرين بإنقاذه منه . . فإن لم يفعل ذلك كان له ـ كما يقول لنا بعض الفقهاء الأجلاء ـ من وزر المنتحر نصيب ، لأن من عرف الداء ولم يطلب الدواء ، فكأنما قد أعان داءه عليه ، واستسلم له بغير مقاومة . والاكتئاب الذى تعانى زوجتك من بعض أعراضه الآن ، يمكن إن لم تعترف به وتطلب العلاج منه ، أن يصل بها إلى مراحله المتأخرة التى تتمثل فى فقد الرغبة فى الحياة ، وتسلط فكرة الانتحار على المريض ، وتحايله لتحقيقها بكل السبل الممكنة .

فهل ترغب زوجتك الحزينة حقًا فى أن تنسحب من الحياة ، وأن تفجع فيها أحباءها الصغار وزوجها المحب ، وكل من أحبوا روحها الطيبة الرضية ، وأسفوا لما أصابها ؟

وهل ترغب حقًا فى مضاعفة خسائر أسرتها الصغيرة باستسلامها للتدهور صحيًا ونفسيًا ؛ بسبب إصرارها على ألا تعين نفسها على الخروج من دائرة الأحزان ؟

إن الحياة لابد لها أن تستمر يا سيدى ، مهما كابدنا فيها من خسائر وآلام ، وليس من حق من ترتبط به حياة الآخرين وسعادتهم أن يخذل أعزاءه ويفجعهم فيه ، كما فجعوا من قبل فى غيره .

وواقع الحياة قد يرغم الإنسان أحياناً على أن يحيا بطريقة صحيحة ، ولكن بشرط أن يعترف هو بهذا الواقع ، ويقبل به ويسلم بما جرى ، ويبدأ فى التواؤم معه .

وعلى مدى أكثر من مائة عام ، توالت خلالها المؤلفات فى علم النفس والصحة النفسية ، لم يجد العلماء روشتة لمقاومة الأحزان أفضل من الإيمان بالله سبحانه وتعالى والتسليم بقضائه وقدره ، كخطوة أولى ، ثم محاولة التشاغل عن الأحزان بالعمل والمشاركة فى النشاطات العائلية والاجتماعية ، والتماس سبل الترويح عن النفس ، وشغلها عما ينهشها من أحزان .

حتى لقد طالبنا عالم النفس الأمريكى وليم جيمس ، إذا لم نستشعر السعادة الحقيقة فى حياتنا أن نتصرف « كما لو » كنا سعداء ، واذا لم نستشعر البهجة أن نتصرف « كما لو » كنا مبتهجين ، وقال لنا إنه حتى هذا التظاهر بالابتهاج والسعادة قد يخفف عن النفس بعض شقائها ويعينها على احتمال الحياة ، تماما كما ينصح الأطباء من يعانون الأرق بالاستلقاء فى الفراش فترة الأرق ولو عجزوا نهائيا عن النوم فيتحقق للجسم عن طريق الاسترخاء بعض ما يحققه النوم الطبيعى من راحة وتجديد للنشاط . . لأن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

وليس كالمحزون إنسان يحتاج إلى الترويح والترفيه عنه إلى أن يجيب دعوة الداعى ، لما يسرى عنه ويعينه على التخفف من الأحزان تمامًا ، كما قال السيد المسيح عليه السلام : « لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب ، بل المرضى ، ولم آت لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة » . .

كما أنه لا شىء يعين الإنسان على الخروج من بئر الأحزان ، مثل أن

يقرر هو بإرادته واختياره الخروج منها مسلماً بأنه قد تجرع من علقمها ما يكفيه ، وإنه قد آن الأوان لأن يتفتح للحياة مرة أخرى ، وينفعل بها ويؤثر فيها ويتأثر بها ، وهى لحظة لابد أن يتوصل إليها الإنسان بإرادته الحرة ، ولا يستطيع أحد للأسف أن يجبره عليها ، مع أنه الاختيار الوحيد المتاح أمامه ؛ لأننا قد نستطيع أن نغير كل شىء فى الحياة إلا «الأمس» وما جرى فيه ، وليس من العدل أن نحيا كضحايا للأبد لهذا الأمس ما بقى لنا من العمر . . . ولا أن يشل قدرتنا على التفاعل مع «اليوم» أو على التطلع إلى غد يخلو من الآلام .

ولا يتعارض ذلك أبدا يا سيدى مع وفائنا لذكرى الأعزاء الراحلين ، ولا يعنى تجاوبنا مع الحياة وأدائنا لواجباتنا المختلفة فيها أننا قد نسيناهم ، فالأعزاء الذين يرحلون عن الحياة لا يغيبون عنا حقًا إلا إذا نسيناهم ، ونحن لا ننساهم ، ولا يطالبنا أحد بذلك ، وهم يعيشون فى وجداننا وتتراءى لنا صورهم فى مخيلتنا ، وقد نتسمع أيضًا أصواتهم من حين لآخر ، ولسوف يرضيهم أكثر أن نتواصل نحن مع الحياة . . وألا نرفض الاستجابة لمن يدعونا لأداء واجبنا الإنسانى فيها . .

ولقد تذكرت وأنا أكتب هذه الكلمات ما قرأته منذ فترة عن عادات بعض القبائل البدائية فى أواسط أفريقيا ، من استقبال المواليد بالبكاء وتوديع الراحلين بما يشبه الاحتفالات الراقصة المبتهجة ، كأنما يزفون راحلهم إلى عالم الخلود ، وهو تقليد انتقل إلى زنوج أمريكا فى القرن

الماضى ، فكانوا يودعون الراحلين بالغناء المبتهج ، وهم ينشدون أغنية تقول : الآن قد أصبح حرًّا !

ورغم بدائية هذه التقاليد . . فإنها لا تخلو من حكمة لا مفر من التسليم بها ، وهى أنه لا بكاؤنا ولا غناؤنا ، ولا ارتداء ملابس الحداد مدى العمر ، ولا خلعها فى الوقت المناسب يفيدهم بشىء أو يضرهم . . وإذا كان الأمر كذلك فلست أطالبك بنسيان أحزانك . ولكنى أطالبك فقط بالتجلد أمامها . . وبعدم السماح لها بأن تمنعك من التواصل مع الحياة أو بأن تدفعك إلى استمرار الانسحاب منها ، ومواصلة التدهور صحيًّا ونفسيًّا ، وهى النتيجة الحتمية « لطعام» الأحزان . .

أما أنت يا سيدى فلا تعول كثيرا على ما تهذى به زوجتك الآن فى انفلاتات أعصابها بتأثير ثكلها المؤلم ، أعانها الله عليه ، فهى بحق لا تعنيه ولا تقصده ، ولن تحتمل حياتها إذا أخذته أنت مأخذ الجد ، وانصرفت عنها إلى غيرها ، بل لعلك لو فعلت لقضيت على آخر أمل ممكن لانقاذها من الاكتئاب ، قبل أن يتمكن منها إلى الأبد !

فلا تصدق ما قالته لك من أنها قد أصبحت تكرهك ، ولا تريد مواصلة العيش معك ردًّا على مطالبتك لها بخلع ثوب الحداد ، فلقد كان ذلك رد فعل انفعاليًّا وعدوانيًّا فقط لهذه المطالبة ، التى تصورتها هى إمعاناً منك فى « النسيان » كأنما قد غاب عنها ـ فى غمار ذهولها ـ أن الأب كالأم فى علقم الثكل ومرارته ، لكن حزن الرجال يختلف عن حزن

النساء؛ إذ تفرض عليهم مسئوليات الحياة الصمود لأحزانهم ، لكى يستطيعوا مغالبة أمواجها الهادرة من حولهم ومواصلة قيادة السفينة فيها . . كما أنهم يتشاغلون عن بعض أحزانهم بالعمل والعلاقات الاجتماعية ولقاءات الأصدقاء . .

وكل ذلك قد حرمت زوجتك نفسها منه . . فتمكنت منها الأحزان ، فإذا كنت قد اقترحت عليها أن تستبدل بالسواد الألوان القاتمة ، فما كان ذلك دليلا على خلو القلب من الأحزان . . وإنما كان رغبة فى تخفيف قتامة الحياة على الجميع ، ليستطيعوا مواصلة الرحلة فى أمان ، كما كان أيضاً استهداء بما أمرنا به الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ؛ حين قال إنه « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا » (متفق عليه) . . فقل كل ذلك لها يا سيدى ، ولا تكف عن محاولة اصطحابها إلى طبيب متخصص يعينها ببعض العقاقير المطمئنة والمهدئة على مقاومة الاكتئاب، ولا تكف أيضًا عن محاولة الترويح عنها ودعوتها للخروج معك إلى النادى والشوارع . . وبيوت الأهل والأصدقاء ، واستعن عليها فى ذلك بمن لا تملك لهم ردًّا ، وهم أبناؤها .

ولن يطول الأمد قبل أن يعود الضياء إلى حياتكم من جديد ، ويبدد ما خيم عليها من قتامة وظلام ، ولن يطول الأمد حتى ينزع الزمن من أحزانكم أشواكها ويروضها ، ويحولها إلى حزن رفيق تنطوى عليه الصدور. . ولا يمنع التواصل مع الحياة ولا الابتهاج بها مرة أخرى . .



أنا سيدة فى السابعة والثلاثين من عمرى ، أعمل، ومتزوجة منذ ثلاثة عشر عاما من إنسان أحبه وأقدره ، وقد بدأ ارتباطى به منذ كان صديقًا لأخى ، وتقدم لخطبتى ، وبدأنا فى بناء عش الزوجية معًا ، وبعد ثلاث سنوات تزوجنا ، وقضينا سنوات الزواج الأولى ، ندبر حياتنا بالدخل القليل المتاح لنا ، ونحمد الله كثيرًا على أن جمع شملنا فى هذا العش البسيط .

وبعد عامين من زواجى حملت وأنجبت طفلاً ، ولكنه لخطأ الطبيب فى عملية الولادة ، توفى مولودى بعد أيام ، وهو فى الحضانة ، وترك لى الحزن عليه .

وبإيمانى وصبرى ، واصلت الحياة ، ودعوت الله فى صلاتى دائمًا أن يمن علىَّ بطفل آخر ، يعوضنى عن فقدى لمولودى الأول ، فلم تشأ إرادته العلية أن أحمل إلا بعد ست سنوات ، وفرحت بحملى الجديد

كثيرًا، ولكنه لظروف خارجة عن إرادتى ، تمت الولادة مبكرة عن موعدها الطبيعى ، ولم ينج قرة عينى وأملى الوحيد فى الحياة من المصير المحتوم ، وتركنى هو أيضًا للألم واجترار الأحزان .

وبعد فترة من عدم التوازن . . استرددت توازنى ، وحمدت الله كثيرًا على كل شىء ، ودعوته أن يعوضنى خيرًا فى صحتى وحياتى ، وركزت كل اهتمامى وعنايتى فى زوجى ، ورحت أخفف عنه وعن نفسى الحرمان من الاطفال بالاهتمام به ، ومراعاة مشاعره ، كما كنت أمازحه كثيرًا بأنه ابنى الذى لم أنجبه ، والذى أريد له السعادة من كل قلبى ، ولا أتردد فى أن أقدم له كل ما أملك لإسعاده ، ولو كان ذلك على حساب نفسى ، كما تفعل كل أم رءوم مع ابنها الوحيد ، ورحت أطيعه دائمًا فى كل شىء، ولا أفعل شيئًا يغضبه ، على الرغم من انه سريع الغضب والانفعال ، وله بعض الطباع التى لا يتحملها سوى من يحبه .

وخلال ذلك كنت كلما لاحظت شروده او استغراقه فى التفكير ، - أقترح عليه إذا كان يشتهى الإنجاب ، ولا يستطيع احتمال الحياة دونه ، أن يتزوج من أخرى ولو لم أرتح له أو اتمناه ، لأننى أحبه ، ولأنه يكفينى منه أن يستمر وجوده فى حياتى ، التى تدور حوله .

وكان زوجى يسمع ما أقول له عن ذلك صامتًا فى البداية ، ثم يحاول أن يتأكد من جديتى فيما اقترحه عليه ، ويستوثق من إننى لن أغضب له، ثم يسكت ولا يصرح بشىء . . إلى أن فوجئت به منذ أسابيع ،

يصارحنى بأنه قد تزوج من زميلة له بالعمل، مطلقة ولديها طفلان ، وتزلزل كيانى وتحطمت مشاعرى ، لأننى لم أتخيل أن يتزوج زوجى امرأة أخرى ، بعد كل الحب والعطاء المتبادل بيننا !

كما أبلغنى بأن الاتفاق بينه وبينها ، هو أن يقيم معها ومع طفليها، وأنه سوف يتنقل بيننا .

لقد فقدت القدرة على الاعتراض ، وكلما بكيت أو استغرقنى الحزن ، قال لى زوجى متعجبًا : ألم تكونى أنت صاحبة الاقتراح منذ البداية ، أو لم تقبلى بذلك مبدئيًا منذ فترة طويلة ؟

فلا أجد ما أجيبه به . .

والآن يا سيدى . . . فإننى حائرة فى أمرى ، ولا أستطيع أن اختار الطريق . . فهل أتركه لحياته الجديدة ، وأذهب أنا إلى حال سبيلى ، كما يراودنى هذا الخاطر فى بعض الأحيان . . أم أظل فى بيتى وفى عش الزوجية الذى بنيناه معا ، وأكتفى بالساعات التى يقضيها معى ، علمًا بأنه قد بدأت تحدث بعض التغيرات من ناحية زوجى ، ولا أعرف ماذا سيكون عليه الحال ، بعد أن ينجب من الأخرى ؟

إننى ألوم نفسى كثيرًا ، لأننى اقترحت على زوجى هذا الاقتراح اللعين مرارًا من قبل، وأعذب نفسى كثيرًا باللوم والتأنيب . . وأتخيل أننى لو لم أكن قد اقترحته عليه ، لما وجدت نفسى الآن فى هذا الوضع المؤلم . . فبماذا تنصحنى يا سيدى . . وهل أستطيع مقابلتك ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

هونى على نفسك يا سيدتى ، وأعفيها من كل لوم أو تأنيب ، فليس « اقتراحك اللعين » هذا هو الذى دفع زوجك للزواج من أخرى ، وإنما هى الرغبة القهرية الملحة فى الإنجاب ، وسواء كنت قد اقترحت عليه هذا الاقتراح أم لم تفعلى ، فلقد كان أغلب الظن أنه سوف يتلمس الأسباب للزواج مرة ثانية لإشباع رغبته . . فالرغبة فى الإنجاب لمن حرم منه من الرغبات الغريزية ، التى تصل فى إلحاحها على المرء إلى مستوى الرغبات « الغلابة » ، التى يصفها علم النفس بأنها الرغبات ، التى تنتفى معها الإرادة والقدرة على المقاومة ، وتصل فى إلحاحها على الإنسان إلى درجة القهرية أحيانًا ، تماما كرغبة « الاستحواز» الغريزية لدى المرأة التى تملى عليها ، ألا ترضى بغير انفرادها برجلها دون امرأة أخرى ، حتى ولو كانت هناك أسباب تدعو لذلك ، وحتى لو « اقترحت » هى نفسها غير ذلك . وهكذا فقد تصرف كل منكما بما أملته عليه طبيعته ، ورغباته الغلابة المشروعة ، التى تعجز معها الإرادة ، فاقترحت أنت عليه ـ كحيلة دفاعية نفسية ولو لم تدركى ذلك ـ أن يتزوج من غيرك ؛ ليعوض حرمانه من الإنجاب ، وأنت تتمنين فى أعماقك أن « يكرمك » برفض هذا الاقتراح رفضًا باتًّا ، واستنكاره بشدة ، ومواصلة الحياة معك ، راضيًا بأقداره ، ومكتفيًا بكل هذا الحب والعطاء المتبادل بينكما .

و «استجاب » هو لاقتراحك ، الذى لم يكن فى حاجة إليه من الاصل للإقدام على تجربة الزواج مرة أخرى ، بل لعله كان يراوده منذ

يئس من احتمال الإنجاب ، وهو يتمنى أن تتفهمى إلحاح أمل الإنجاب عليه وعجزه عن مغالبته ، وتقبلى باستمرار الحياة معه بلا لوم ولا عتاب ، إكرامًا للعشرة الطيبة ، التى جمعت بينكما ، وحرصًا على ألا يتخلى عنك أيضًا فى الوقت نفسه .

وليس بعيداً ألا يكون زوجك واثقًا من نجاح تجربة الزواج الجديد واستمرارها ، فيحرص على ألا يفقدك نهائيًا حتى إذا فقد « حياته الأولى» التى لم ينكر منها شيئا سوى الحرمان من الإنجاب .

والحق أنه لا لوم عليك فى قبولك لهذه الأوضاع الجديدة ، و«صدمتك الكبرى » فى زواج زوجك ، مع أنه كان أمرًا متوقعًا فى ضوء الظروف المحيطة .

ذلك أنه من حق الإنسان إذا فقد بعض أسباب السعادة وراحة البال ، لأسباب لا حيلة له فيها أن يتمسك بما تبقى له منها ، ويحرص عليه ويتعزى به ، إذا لم يكن قادرًا على تغيير الحياة ، التى فقدت بعض أسبابها والبدء من جديد .

وبعض البشر قد يفضلون أن يحرموا أنفسهم مما تبقى لهم من أسباب السعادة ، بعد المتغيرات المماثلة فى حياتهم ، بغير أن يكونوا قادرين على تعويضها فى حياة أخرى ، وقد يتمسكون برفض القبول بنواقص حياتهم ، ويتعزون عن فقد هذه الحياة كلها بنواقصها ، وبما تبقى بها من أسباب السعادة بإحساس الانتصار للكرامة الجريحة . . وإحساس القدرة على رفض ما يأبونه لأنفسهم .

ولكن هل يكفى ذلك حقا لأن يعوضهم عما فقدوا من سعادة ، حتى ولو كانت ناقصة ؟

إن البشر يختلفون إزاء هذا الاختيار ، ولكل إنسان طبيعته التى تتوافق مع شخصيته ورؤيته للحياة وفهمه للسعادة ، ويخيل إلىَّ يا سيدتى أنك لست من النوع القادر على التخلى عن السعادة الناقصة ، التى فرضتها عليك الظروف الآن ، أو على الأخذ بمبدأ « كل شىء أو لا شىء » هذا الذى قد يأخذ به البعض فى مواقف مماثلة .

ولست أظن أن ظروفك الإنسانية تحتمل مثل هذا الموقف الحاد ، وأنت تحبين زوجك ، كما أحس من كلماتك ، وتعتبرينه ابنك الذى لم تنجبى سواه ، كما أنه من المؤكد فى تقديرى ، أنك لن تسعدى بحياتك إذا خرج زوجك منها نهائيًا ، واستأثرت به الأخرى دونك ؟

ولاشك أن دوافعه للبحث عن الإنجاب بعد ١٣ عامًا من الانتظار تلقى منك ، وأنت السيدة العطوف بعض « الفهم » ، حتى ولو لم تلق منك أى قبول ، وهذا « الفهم » وحده يكفى الآن لكى يخفف عنك بعض ما تشعرين به من ألم تمامًا ، كما أن إدراكك لأن زوجك لم يسع للزواج إلا لتحقيق أمل الإنجاب المشروع ، لابد له أن يخفف عنك وقع «الصدمة» ويعينك على التماس العذر له . .

فلهذا لعلى أنصحك فى النهاية بما ترغبين أنت فيه فى أعماقك ، وهو الاستمرار أو التمسك بما تبقى لنا من أسباب للسعادة . . بديلاً للوحدة والحرمان التام من كل أسبابها .



أنا شاب من أسرة متوسطة ، أدرس بالجامعة ، وأعمل إلى جانب الدراسة ، لأساعد نفسى على أعباء الحياة وعمرى ١٨ عامًا .

تبدأ فصول المشكلة المؤلمة التى أحدثك عنها ، ولا أستطيع أن أتحدث عنها مع أى إنسان آخر ، منذ ست سنوات ، وأنا فى الثانية عشرة من عمرى ؛ حين رجعت إلى البيت ذات يوم ، وفتحت شقتنا بالمفتاح ، فإذا بى أجد مفاجأة قاتلة فى انتظارى ، وهى وجود أقرب الأشخاص إلى الأسرة مع أمى وحدهما فى المسكن ، وفى موعد يعرف الاثنان أن أبى يكون فيه فى عمله . . فلم أملك إلا الصمت والاكتئاب والحزن الغامض ، الذى لم أكن أعى أسبابه وقتها ، ورغم صغر سنى . . فقد لاحظت الارتباك الذى تولى أمى وصديق الأسرة لعودتى غير المتوقعة ، وحاولت أمى أن تقنعنى بأنه قد جاء منذ لحظات فقط على

موعد مع أبى ، ولكن أبى تأخر فى العودة ، فاضطرت هى لاستقباله وتقديم واجب الضيافة له ؛ حتى يرجع أبى .

ورغم أننى كنت أكثر منها رغبة فى أن أصدق هذه القصة ، إلا أننى لم أستطع أن أفهم لماذا يتطلب واجب الضيافة أن تجلس أمى معه على الأريكة الضيقة نفسها فى الأنتريه ، مع أن به أماكن لستة أشخاص ، أو لماذا اضطربا اضطرابًا مخجلاً ، حين دخلت عليهما ؛ حتى كادا يقعان على الأرض عند نهوضهما من الأريكة ؛ بسبب اصطدام وجهيهما وتلعثمهما . .

لقد ظل هذا المشهد المؤلم يطاردنى طوال السنوات التالية ، ويشعرنى بالخجل من نفسى ومن أمى . . ومن أبى . . ومن جيرانى ، ومن زملائى بالمدرسة . . حتى اعتبرت هذه السنوات أسود فترة فى حياتى ، وتمنيت أن أنهى دراستى ، وأن أهاجر للخارج ، خاصة إن أمى كانت مثلى الأعلى فى النساء . . وكان هذا الشخص للأسف هو مثلى الأعلى فى الرجال !

وعامًا بعد عام بدأ هذا المشهد يتباعد ، فلا يطل علىّ إلا من حين لآخر ، بعد أن كان يطاردنى كل يوم ، ورحل أبى عن الحياة ، وبكيته كثيرًا وشعرت تجاهه ببعض الذنب ؛ لأنى لم أخبره بما رأيت . ثم حدث منذ أسابيع أن كنت عائدا من العمل فقررت أن أمر بشقة أختى الغائبة فى الخارج للاطمئنان ، وفتحت الباب بالمفتاح فإذا بى أجد أمامى

المشهد نفسه ، الذى تمنيت أن أنساه ، وكان رد فعلى هذه المرة هو الصمت العاجز . . الكاره . .

ولا أعرف لماذا صمت . . ومنذ حدث ذلك ، وأنا أعيش فى ظلام وحزن ، ولا أستطيع النوم ، فهل أخطأت حين لم أبلغ أبى فى أول مرة بما رأيت . . وهل أنا ضعيف الشخصية ، وماذا أفعل ، وكيف اتصرف فى هذه المصيبة ؟

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من المؤلم حقًّا أن تتعرض لمثل هذه المحنة المريرة فى صباك وفى شبابك أيضًا ، ولولا إدراكى لعمق ما تعانيه من ألم وخجل وإحساس مرير بالعار تجاه أقرب الناس إليك ، لما نشرت رسالتك هذه ، كما لا أنشر مثيلاتها من الرسائل ، التى تحكى عن وقائع لا أخلاقية ، لم يخل منها مجتمع بشرى ؛ منذ فجر البشرية ، فإن كنت قد نشرتها هذه المرة ، فلكى أخفف عنك بعض ما تعانيه من أثر ما تكتمه فى صدرك ، ومن أثر اهتزاز مثل الأم المستهترة أى شرخ نفسى ، تهديه إلى إبنها ، وقد ينعكس عليه بأبلغ الضرر فى حياته الشخصية ، وربما علاقته بزوجته فى المستقبل ، ونظرته إلى الجنس الآخر ، وإلى الحياة طوال العمر .

فإذا كنت قد التزمت بالصمت فى المرة الأولى ، وكتمت أحزانك فى صدرك ، وكابدت هذا المشهد المؤلم فى مخيلتك طوال ست سنوات ، فلقد كان لك عذرك وقتها ، وأنت صبى صغير فى الثانية عشرة من عمرك ، لا تعى كثيرًا من حقائق الحياة ، وتحكمت نظرة الابن الصغير إلى الأم ،

التى ينبغى أن تكون دائماً رمزا للطهر والعطاء ، كما أنك كنت لا تملك لها شيئًا ، وهى زوجة لرجل مسئول عن حماية عرضه والدفاع عنه .

وعلى الرغم من كل ذلك . . فلقد كان من واجبك أن تنفر من هذا الشخص ، وأن تعتزله ، وتبدى الجفاء الشديد ، وترفض الاقتراب منه ، أو اقترابه منك ، ولا تستجيب لأى تودد من جانبه إليك ، بغير أن تصرح بحقيقة أسبابك ؛ إذ لعل هذا الجفاء المفاجىء من جانبك تجاهه ، كان يساعد أباك على الشك فى أسبابه ومحاولة التحرى عنها ، والتصرف على ضوء ما يتوصل إليه من معلومات ، بشأن شريكة عمره .

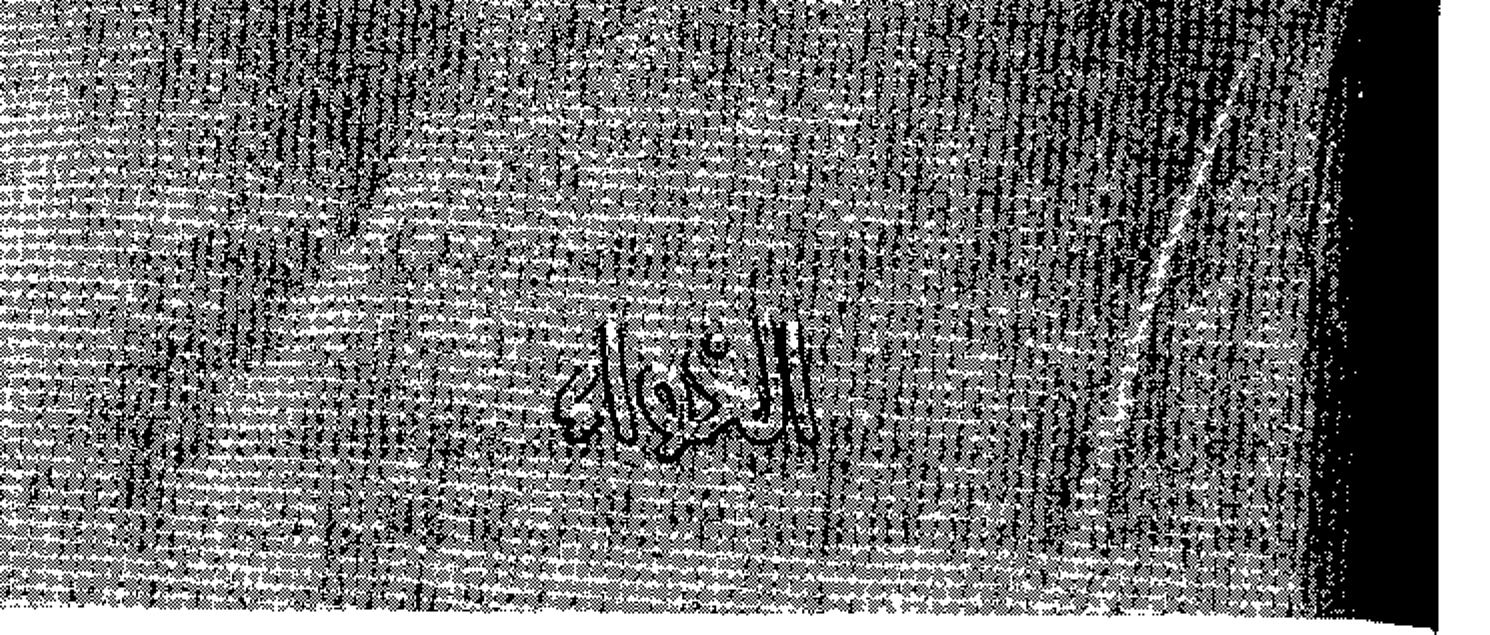
أما فى المرة الثانية . . . فلم يكن لك أى عذر فى صمتك هذا ، حتى ولو كان تحرجًا من الأم ، وكان من واجبك ألا تقبل من الطرفين أى تبرير درامى « لصدفة » لقائهما فى شقة أختك الغائبة ، وأن تنتفض غضبًا ضدهما معا ، وتطالب هذه السيدة التى أتعفف عن وصفها بلقب الأم ، بتحليل هذه العلاقة الآثمة ، ووضعها فى إطارها المشروع ولو بالزواج العرفى ، وهو أضعف الإيمان ، بل إنك كنت تملك إحراجهما معا فى ثورة غضبك ، وتهديدك لهما على أن ينعقد هذا الزواج على الفور ، وتصحبهما معًا من شقة أختك إلى أقرب مأذون أو مكتب محامى لعقد الزواج الشرعى أو العرفى والإشهاد عليه ؛ حفظًا لكرامتك التى أدمياها مرتين ، وحتى لو طلقها بعد ذلك وابتعد عنها .

وربما كان هذا أقرب ما كان سيفكر فيه ، بعد أن تتحول العلاقة الآثمة إلى علاقة مشروعة ، لسبب بسيط ، هو أنه سوف تساوره غالبًا الشكوك فى إخلاصها له ، وقد خبر وفاءها من قبل لزوجها ، وخبر

حقيقة إخلاصها لمن تحمل اسمه . . فضلاً عن أنه كان سيعرف أن المغامرة « المجانية » قد تحولت إلى زواج مشروع ، له أعباؤه الاجتماعية والعائلية ، وله تبعاته ، التى قد لا يقدر على تحملها بالنسبة لأسرته وزوجته وأبنائه ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون شابًا « عزبًا » ، وإنما الأقرب للعقل ، وقد كان صديقًا لأبيك ، هو أن يكون فى مثل سنه أو يقاربه فى العمر .

وعلى أية حال فما دامت هذه الفرصة قد أفلتت من يديك ، فلا تكتف هذه المرة باجترار الأحزان وحدك ومكابدة ذلك المشهد الكريه فى مخيلتك ، وغالب حرجك وخجلك وإحساسك المرير بالعار ، وطالب تلك السيدة بأن تتزوج صديقها ، مادامت مستمسكة به كل هذه السنوات ، حتى لو على حساب كرامة ابنها ورجولته وصحته النفسية ، واستعن بشقيقتك المتزوجة على ذلك ، فإن لم يتحقق ذلك فطالبها بلا حياء منها ؛ لأن الحياء مع من لا يستحى ضعف مرذول ، بأن تقطع علاقتها بهذا الشخص ، وحرم أنت عليه الاقتراب منها ، أو من بيت الأسرة ، وضيق عليها وعليه الخناق بكل ما تستطيع من وسائل ، واصبر على هذا الكرب العظيم ، الذى يذكرنا بعذاب هاملت بخيانة أمه لأبيه مع عمه ، وتآمرهما عليه ، حتى تنهى دراستك وتشق حياتك بعيدا عن هذا الجو الفاسد . .

هذا إذا لم تكن قادرًا من الناحية العملية والمادية على أن تقدم على ذلك الآن ، فى حالة إصرارها على مواصلة هذه الحياة غير الفاضلة بلا زواج . . وبلا تعفف عن الخطيئة .



لماذا يشقى الآباء لإسعاد أبنائهم وتوفير الحياة الكريمة لهم، حتى إذا شب هؤلاء الأبناء عن الطوق ، وأصبحوا رجالا ، وحان موعد سداد فواتيرهم للآباء واحتاجوا إلى أبنائهم معنويا أو ماديا ، لم يجدوا منهم إلا الخواء ؟

لقد نكأت جراحى رسالة « الإنذار الأخير » للأب بائع العرقسوس ، الذى عمل فى حر الصيف وبرد الشتاء لتربية أبنائه ، ليجعل منهم رجالاً يشار إليهم بالبنان ، ثم تباعدا عنه ، بعد أن تقدم به العمر ومرض ، ولم يحفظ وده ويرعاه سوى ابنته الوحيدة . .

أما لماذا نكأت جراحى ، فلأننى رجل عصامى ، تخرجت فى إحدى كليات القمة ، وتزوجت فور تخرجى ، وكانت زوجتى من الطراز النادر، الذى يتمناه كل إنسان لنفسه ؛ فأنجبت منها البنين والبنات ، وآليت

على نفسى أن أوفر لهم كل ما يحلمون به فى المستقبل من تعليم ومسكن وعمل وزواج .

واستجاب الله سبحانه وتعالى لرجائى ، واشتريت خلال عملى قطعة أرض للبناء فى أحد الأحياء التى كانت جديدة وقتها ، ورحت أبنى عليها كل عامين أو ثلاثة شقة بالتوفير والتدبير والاشتراك فى جمعيات الادخار ، وشراء المستلزمات بالتقسيط . . . إلخ ، حتى اكتملت خلال رحلة العمر ، كل الشقق بعدد الأبناء الذكور مع شقة لأختهم الكبرى ، ثم توالت الأفراح بزواج الأبناء ، حتى تزوجوا جميعًا ، ولم يتبق منهم سوى الابن الأصغر .

وعند ذاك أطل علينا الوجه الآخر للحياة ، وهو وجه الابتلاء الذى قد يغفل عنه كثيرون ، ورقدت رفيقة العمر طريحة الفراش بالمرض اللعين، وراح الوحش القاتل يسلبها منا شيئًا فشيئًا ، وعرفنا دخول المستشفيات ومغادرتها ، ورأينا من صور اللوعة والأسى ما يفوق الخيال، ورحلت زوجتى الغالية إلى رضوان ربها يرحمها الله ، وتجرعت مرارة الترمل والوحدة والحزن .

ثم انتبهت لنفسى بعد عامين من رحيلها ؛ فإذا بالدنيا خواء من حولى وإذا بأصغر الأبناء الذى كان يعيش معى ، قد انشغل عنى فى إعداد شقته استعدادًا للزواج ، فأصبحت لا أراه إلا حين يحتاج للمشورة أو للنقود ، ووجدتنى أعانى مرارة الفراق والحرمان من الأنيس والجليس أوقات الليل والنهار ، مع أن أبنائى المتزوجين يقيمون فوقى وتحتى فى

المنزل نفسه ، لكن كلا منهم قد أصبحت له حياته ودنياه الخاصة ، فأصبحت أنا لا أجد من أتكلم معه ، سوى فى صلاتى ودعائى لربى ، بأن يخرجنى من كربى وحزنى ، وأشعر دائمًا بالاكتئاب والميل إلى البكاء والانطواء ، لولا تمسكى بالصبر والصلاة .

ثم جاءنى صديقى العزيز وجارى لزيارتى ذات يوم ، فدهش لما وصل إليه حالى ، واقترح على ضرورة الزواج مرة أخرى ، لأن الرجل فى حاجة دائمًا إلى زوجة ترعاه ويرعاها، خاصة أننى كنت وقتها لم أبلغ الستين ، قادرًا صحيًا وماديًا على الزواج ، وقال لى تأكيدًا لذلك إننى قد أكون الآن قادرًا على أن أخدم نفسى ، ولكن هل أضمن أن أظل قادرًا على ذلك فى المستقبل ؟!

وتراءى لى السؤال مخيفًا ومزعجًا ، فاقتنعت بحاجتى للزواج ، وفاتحت أبنائى برغبتى فى البحث عن زوجة تناسبنى من حيث السن والمستوى الاجتماعى والثقافى . . . إلخ ، وحدثتهم فى ذلك ، وكلى ثقة فى أنهم كانوا يودون أن يطرحوا على هذا الاقتراح نفسه ، ولكنهم يتحرجون منى ، ففوجئت بأن أبواب الجحيم قد انفتحت علىَّ ، وفوجئت بالرفض القاطع الذى لا يبرره شيء ، سوى الرغبة فى الرفض . .

وتألمت لذلك كثيرًا ، ولكنى لم أشأ إيلامهم أو إحراجهم ، وتساءلت عن الحل البديل الذى يرضيهم لوحدتى ، فكان الحل الذى اقترحوه هو أن يتكفل الأبناء بالتناوب كل يوم بشئونى المنزلية من إعداد الطعام إلى

نظافة الشقة إلى غسيل الملابس إلى آخره ، ورضيت أنا بهذا الحل المنقوص إكرامًا لأبنائى .

ووضع الأبناء جدولاً بأيام الأسبوع ؛ بحيث يتولى أمورى فى كل يوم أحد الأبناء أو زوجته ، وانشغلت بعملى عن وحدتى حتى بلغت سن المعاش ، وتقاعدت فى البيت ، فبدأ جدول « النوبتجية » المقرر لخدمتى فى شقتى فى الاضطراب وعدم الانتظام ، وواصل بعض الأبناء الالتزام به، واكتفى البعض الآخر بالاعتماد على قيامهم بذلك ، وأعفى نفسه وزوجته منه فتباعدت « النوبتجيات » ، وأصبحت لا أراهم ونحن فى بيت واحد إلا نادرًا ، وأصبح بعضهم يطرق الباب ليرانى أو يسأل عنى، والبعض الآخر « يطنش » ويتناسى ، إلى أن أصبت منذ فترة بجلطة بسيطة فى القلب ، تم علاجها بسرعة والحمد لله ، لكن ما صاحبها وما رأيته خلالها وبعدها من الأبناء الأعزاء ، قد جعلنى أندم أشد الندم على رضوخى لرغبتهم فى عدم الزواج مرة أخرى ، حين كنت قادرًا عليه صحيًّا ، فلقد أصبحت لا أجد الآن ـ وبعد أن جاوزت السبعين ـ مطالبى .

واكتفى الأبناء جميعا بالسؤال عنى عند صعودهم إلى شققهم أو نزولهم منها ، ولولا صديقى وجارى العزيز ، الذى يؤنس وحدتى ، ويسأل عنى ، ويساعدنى فى بعض شئونى لظروف مرضى ، لكنت قد «تعفنت» فى شقتى ، خاصة بعد أن أصبحت أحتاج إلى نظام خاص للعلاج والغذاء . .

ولهذا فإنى ومن واقع تجربتى الشخصية أنصح الآباء جميعًا ، الذين يواجهون ما واجهته أنا بعد رحيل رفيقة العمر ، وأقول لهم : إذا رغبتم فى الزواج بعد رحيل رفيقة العمر طلبًا لمن يشارككم وحدتكم ، فلا تأبهوا لرفض الأبناء ، ولا ترضخوا لهم ، ولا تعتمدوا على وعودهم ، وأمضوا إلى ما تريدون ، لأنه لا حياء فى الدين ، ولا ضرر ولا ضرار ، والأمر لله من قبل وَمن بعد . . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

من حقك أن تندم يا سيدى على عدم زواجك مرة أخرى ؛ استجابة لرغبة الأبناء ، وأملاً فى وعودهم لك برعايتك فى وحدتك ؛ والقيام عنك بما تحتاج إليه من خدمة هينة، وإيناس لا يكلف الآخرين شيئًا كثيرًا ، فلقد نقض هؤلاء الأبناء الذين أكرمتهم بقبول رجائهم لك بألا تتزوج مرة أخرى ، عهودهم لك بأن يكفوك مئونة الحاجة إلى رفيقة حياة ترعاك وترعاها ، وغفلوا عن أنك قد ضحيت من أجلهم ، بما كنت فى أشد الحاجة إليه ، وقتها من إشباع نفسى وعاطفى ، عقب رحيل زوجتك عن الحياة ، وكان العرفان لك من جانبهم يقتضيهم ألا يفتروا عن خدمتك ، أو يتهربوا منها ، أو يستثقلوها مهما طال بها العهد . . ومهما كلفتهم من مشقة ، ليس فقط لأنك قد أحسنت إليهم ، بتنازلك عن اعتباراتك الإنسانية والعاطفية كأرمل وحيد ، يحتاج إلى شريكة حياة ، وإنما أيضًا لأنك قد أحسنت إليهم ، كما قال ذلك الإعرابى الحكيم : صغارا وكبارا وقبل أن يولدوا ، بأن اخترت لهم من الأمهات من لا يسبون

بها على حد تعبير ذلك الإعرابى ، وأديت واجبك تجاههم كاملاً ، فأحسنت تعليمهم وإعدادهم لمواجهة الحياة ، ووفرت لهم كل ما يعتمدون عليه الآن فى حياتهم من أسس : من التعليم إلى الزواج إلى المسكن اللائق .

وكان الظن ألا يغفلوا يومًا عن رعايتك وأداء حقك عليهم غير أن هؤلاء الأبناء الذين يكتفون الآن بطرق بابك للسؤال عنك ، مع أنهم يعيشون معك فى البيت نفسه يغفلون وأمثالهم للأسف عن أن احتياج الآباء اليهم ؛ خاصة من كان وحيدًا مثلك ـ لا يقتصر فقط على الاحتياج المادى لهم من رعاية شخصية ، أو قيام بشئونهم ، أو كفالتهم والوفاء لهم بكل احتياجاتهم ، وإنما يمتد إلى ما هو أهم لديهم من ذلك ، وهو الاحتياج النفسى للأبناء والاحتياج لأن يشعروا ، وهم فى شتاء العمر بأنهم مازالوا ، وسوف يظلون ما بقوا على قيد الحياة فى بؤرة اهتمام الأبناء ، وليسوا على هامشها أو خارج إطارها بالمرة ، فيواصلون رعايتهم ، وتلبية رغائبهم ويعفونهم حتى من حرج التصريح بها ؛ إذ ليس من الفضل أن ينتظروا أن يطلب الأباء ما يعرفون ، هم أنهم فى أشد الحاجة إليه ، فما بالك بعد ذلك بكل ما يدخل السعادة إلى قلوبهم من مبادرات الأبناء ؛ لإبهاج الآباء ، وتخفيف بعض اكتئاب الشيخوخة الذى يصيب كثيرين منهم ؟

إن الكارثة هى أن بعض الأبناء لا يدركون للأسف عمق تلهف الأباء، على أن يواصل أبناؤهم الاقتراب الجميع منهم ، وإظهار مودتهم

لهم ، وبما لا يكلفهم شيئا كثيرًا أو قليلاً ، وهو أن يسامروهم من حين لآخر ويحدثوهم عن أنفسهم وحياتهم وشركائهم فيها من زوجات وأبناء ، ولا يعرفون أيضًا أن مثل هذه الثرثرة البسيطة تشعرهم بارتباط الأبناء بهم ، وتلبى احتياجًا نفسيًّا ، مهما لديهم ، كثيرًا ما يتحرجون عن الإفصاح عنه ، وتعويضهم عما يشعرون به من غربة نفسية عن أبنائهم الذين ابتعدوا عنهم بأفكارهم وآمالهم وأحلامهم ، بل ومشكلاتهم أيضا ، غير مدركين أنه قد لا يرضى الآباء والأمهات شىء فى شيخوختهم ووحدتهم واكتئابهم أكثر من أن يفتح لهم الأبناء قلوبهم ، ولو بالشكوى من الحياة وما يجرى فيها .

بل إن من الآباء من قد « يستجدى » من الأبناء أحيانًا الحديث عن شئونهم وحياتهم ، فلا يجدون منهم إلا الكلام المقتضب ، والإجابات المختصرة الملغزة ، وحديث الكارهين ، لأن يتخلوا عن تحفظهم فى التعبير عن أنفسهم مع أبائهم وأمهاتهم ، كأنما يشعرون تناقضًا موهومًا ، بين أن يكونوا « كبارًا » ، وبين أن يواصلوا إشراك آبائهم وأمهاتهم فى أفكارهم ومتاعبهم ، كما كانوا يفعلون وهم صغار ، وقد يستبشرون الغرباء ، ويعزفون عن استشارة الآباء والأمهات فيما يواجهون من اختبارات ، ومواقف تأثرًا بهذا الفهم الخاطىء للرجولة أو النضج . .

وهكـذا . . فقـد أصبحنا نجد من يزور أمه المسنة أو أباه الشيخ ، فلا يجد ما يقوله له خلال الزيارة بعد كلمات التحية المقتضبة والمجاملات المألوفة ؛ لأن حبل الحديث قد انقطع من جانبه مع أبويه ، منذ بلغ

مبلغ الشباب ، وآمن بأن من حقه أن تكون له حياته الخاصة المستقلة البعيدة عن تدخل الأب والأم . . ولأنه لم تعد هناك لغة مشتركة بين الطرفين .

ولسوف يظل مثل هؤلاء الأبناء سادرين فى غيهم وتحفظهم وانشغالهم بأنفسهم ، إلى أن يشب أبناؤهم عن الطوق ويجرعوهم من الكأس نفسها ، فيدركوا لأول مرة عمق حسرة آبائهم بما وضعوه من قبل من حاجز زجاجى معنوى بينهم وبين هؤلاء الآباء الأمهات ويدركوا أيضًا معنى « ذل » استجداء الحديث والإيناس من فم ابن متحفظ ، أو ابنة تشعر بأنه ليس لديها ما تقوله لأبيها أو أمها .

وهكذا الحياة دائمًا يا سيدى ، تعلمنا دائمًا فهم حقائق الأشياء بعد فوات الأوان ، وبعد أن نكتوى نحن بنار التجربة وليس قبلها ، فلا نامت أعين الجبناء والجاحدين . . ولا عفا الله عمن يجحد فضل الآباء والأمهات ؛ فيبخل عليهم ليس فقط بواجب الرعاية ، لمن كان أبًا وحيدًا ومريضًا مثلك ، بل أيضا بواجب الإيناس . . والإرضاء . . وإشعار الأب بأنه قد أهدى الحياة ابنا صالحًا ، وليس « حية رقطاء » كما وصف الملك لير فى مسرحية شكسبير « الابن الجاحد » .

فعزاء لك يا سيدى عن وحدتك ومرضك . . وأرجو أن تحرك هذه الكلمات أبناءك ؛ ليتنبهوا إلى أداء واجبهم الإنسانى تجاهك ، ويعوضوا ما فات من تقصيرهم معك ، وهم يعيشون فى جوارك وتحت سقف البيت ، الذى أفنيت العمر كله . . لتقيم القواعد منه .

أما نصيحتك لكل الآباء التى توجهها إليهم من جحيم الوحدة والمرض والإحساس المرير بتقصير الأبناء ، فلعلها لا تصلح للتعميم فى كل الأحوال ، لأن الظروف تختلف بين أب وآخر وبين أبناء وأبناء . . ولكنها تكشف فقط عن عمق ما تستشعره من مرارة تجاه أبنائك ، وأنت فى هذه المرحلة ، من العمر . . فعسى أن يكفيك الله الحاجة إلى إطلاق مثل هذا النداء المرور . . وعسى أن يتنبه أبناؤك إلى واجبهم ، قبل فوات الأوان . .

ريشة فى الهواء

لم أكن أتوقع أن أكتب إليك عن نفسى فى يوم من الأيام ، وعلى الرغم من أننى أقرأ لك منذ عشر سنوات ، فأنا سيدة فى التاسعة والثلاثين من عمرى ، حين أتممت دراستى بإحدى كليات القمة بتفوق . . . تقدم إلىّ شاب وسيم هادىء ، فوجدت فيه فارس أحلامى ، الذى طالما انتظرته وغمرته بمشاعرى الحبيسة طوال صباى ، وتم عقد قراننا بعد أسبوع واحد من لقاء التعارف بيننا ، ورجع إلى عمله خارج مصر ، رغم إلحاحى عليه بألا يغادرنى ، بعد أن تعلقت به بكل ذرة من كيانى على قصر الفترة ، ولكنه كان لابد له أن يرجع ، ورجع ، وتبادلنا الحب على البعد إلى أن عاد لإتمام الزفاف ، وسافرت معه .

ومنذ اليوم الأول الذى جمعنا فيه بيت واحد ، اعتبرته أبى وأمى وأخى وأختى وكل أسرتى ، يذهب إلى عمله وأنتظره بكل الحب حتى يعود ، وأتفانى فى خدمته والسهر على راحته ، حتى لأبكى رغمًا عنى إذا شكا من الصداع ، وعشت معه فى الغربة عشر سنوات كاملة من السعادة



والحب والوئام ، أنجبت خلالها ثلاثة أبناء ، ثم رجعت ذات صيف فى الأجازة السنوية المعتادة ؛ فإذا بى أكتشف أن أمى قد رحلت عن الحياة قبل ستة شهور . . ولم يبلغنى أحد برحليها إشفاقاً على فبكيتها طويلاً ، وصممت على عدم الرجوع إلى الغربة مرة أخرى . .

وألححت على زوجى فى ذلك واستقررنا فى بلدنا بالفعل ، ورجع زوجى إلى عمله السابق ، ورجعت كذلك إلى عملى بمصر ، وواصلت حياتى مع زوجى كما عشتها معه فى الغربة ، وهو محور حياتى ، وأنا أدور فى فلكه ، أحبه حبًّا ، اعتقدت معه أننى أحبه أكثر مما أحب أطفالى ، ولا يهدأ لى بال ، إلا إذا رجع إلى البيت من عمله . . ولا يغمض لى جفن إلا ويدى فى يده كأنما أقبض عليه بها لأستشعر الأمان والاطمئنان . .

هو كل عالمى ودنياى وأصدقائى ، حيث لم أتخذ لنفسى صديقة واحدة ؛ لكيلا يشغلنى أحد عنه ولو لبعض الوقت . . وهو الزوج المثالى الذى يساعدنى فى شئون البيت ويلبى لى طلباتى ، ولا أكاد أطلب منه شيئاً ؛ لأنه يأتى لى بما أريد قبل أن أطلبه ،وأنا أحفظ ماله ، فأحترس فى الإنفاق ، وأطلب من أطفالى ألا يبذروا لأن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، ولكنى أوفر له ما يحتاج إليه من ملابس فاخرة ؛ حيث يعمل فى مجال يتطلب منه الحرص على المظهر ، وحافل بالمظاهر والحفلات والندوات والاجتماعات ، فى حين نرتدى أنا والأبناء الملابس العادية البسيطة ، ويرضى هو بذلك ، ويقول : « أنا واجهتكم فى المجتمع ولابد أن تكون الواجهة لائقة » .

وأؤيده فى ذلك بكل حرارة ، وأحاول أن أفعل دائماً كل ما يرضيه ويحقق له كل أماله ، فإذا تذمر يومًا من أنه يعمل ليلاً ونهاراً ليوفر لنا مطالبنا ـ رغم قلة مطالبى منه ـ عرضت عليه على الفور ، أن أعمل فترة مسائية بشركة أخرى ؛ لأعينه على الحياة ، وليخفف هو من بعض عناء العمل ، فيرفض ذلك بإصرار ، وإذا تذمر مرة من انشغالى عنه بالمطبخ والأولاد . . اقترحت عليه بجدية أن أترك العمل نهائيا ؛ لأتفرغ له كل الوقت ، فيرفض أيضا .

ثم منذ أربعة شهور ؛ بدأ زوجى يغيب خارج البيت فترات طويلة ، فلا نجتمع على مائدة الغداء إلا نادراً ، ونبهته لذلك فنهرنى بشدة وطلب منى أن أبحث لنفسى عن أسرة أخرى ، إذا لم تكن حياتى معه تعجبنى ! . . ثم راح يتذمر من كل شىء ، حتى من طول قامتى ، التى اكتشف بعد ١٥ عاما من الزواج أنها قصيرة ! وكلما عاتبته على ابتعاده وتغيبه فترات طويلة خارج البيت ـ حتى أصبح لا يعود إلا ليلاً للنوم فقط ـ قال لى إن هذه هى حياته ، وإن علىّ أن أخرجه من تفكيرى نهائيا !

انهرت أمام ما طرأ عليه من تغيرات وبكيت . . وقبلت يديه ، وأقسمت له بكل غال ونفيس أننى لا أستطيع الحياة دونه ، لكنه ظل كما هو لا يعبأ بى ولا ببكائى وصراخى وإغماءاتى المتكررة ، التى أصبحت جزءًا من حياتى فى الأسابيع الماضية ، واستمر هذا الحال أربعة شهور طويلة كالجحيم ، وكلما واجهته بظنونى ، قال لى إنها وساوس وأوهام ، ونصحنى بالذهاب إلى طبيب نفسى ؛ حتى هممت أن أنفذ ذلك

فعلاً؛ لأننى قد بدأت أنفجر ، وأحطم الأشياء فى البيت مما يفعل بى وبأعصابى . .

فهو يحاول استفزازى فى يوم فأنفجر وأبكى ، وفى اليوم التالى أجده حنوناً فأحاول نسيان ما فعل بى بالأمس ، ثم يرجع لمضايقتى فى اليوم التالى ، وهكذا بلا نهاية ، حتى سألته : لماذا تفعل بى ذلك ؟ . . هل تنتقم منى لشىء لا أعرفه . . وأين السعادة التى عشناها ١٥ عاما ؟ . . فيجيبنى بأنه لم يكن سعيدًا ، بل يصطنع السعادة ، وإنه يريد الآن أن يحيا حياته كما تحلو له ! وراح يواصل نظامه الجديد ؛ فيخرج فى الصباح على وعد بأن يرجع فى الثالثة بعد الظهر ، فلا يرجع إلا فى الحادية عشرة مساءً ، ويخرج يوم الجمعة الذى كان يقضيه معنا من السابعة صباحًا ، ويطلب منى أن أتعود على ذلك ، لكننى لم أتعود . . .

ولم أهدأ وصممت على أن أعرف أين يقضى كل هذا الوقت بعيداً عن زوجته وأسرته ، فكانت الطامة الكبرى هى أنه قد تزوج من أخرى ، ويطلب منى أن أتقبل الأمور ببساطة ، ويقول إننى الذى دفعته إلى ذلك بإهمالى الشديد له ، وانشغالى عنه ، وإنه لم يفعل حرامًا ، وسبق أن أخبرنى بأنه سيتزوج من أخرى فقلت له اذهب وتزوجها ، مع أننى كنت أتصورها فى ذلك الوقت مداعبة ، ولم أدرك أنها حقيقة .

وانهرت حين عرفت بزواجه ، وانقطعت عن العمل منذ ١٥ يومًا ؛ لأننى لا أستطيع ، وأنا أشغل مركزاً محترمًا ، مواجهة الناس والمجتمع . . ولا أعرف كيف يكون وضعى بينهم حين يعرفون أن زوجى قد تركنى

وتزوج بأخرى ، مع أن الجميع يشيدون بأخلاقياتى وهدوئى وطباعى الحميدة ، أما زوجى . . . فقد انتقل إلى شقة أخرى له فى البيت نفسه ، كان يهددنى دائماً فى الفترة الأخيرة بأنه سيهجرنى ليعيش فيها وحده ، ورفض حتى أن يكتب باسمى الشقة التى أقيم بها مع أولادى .

كما اكتشفت أن كل إخوتى كانوا على علم بزواجها عداى ، وأنه طلب منهم إبلاغى بذلك ؛ حتى لا أضيق عليه الخناق فى الخروج والدخول ، ولكنهم أشفقوا علىّ من إبلاغى بالخبر ، وطلبوا منه كتمانه مراعاة لمشاعرى ولعشرة السنين ، لأننى لن أحتمله ، وسوف أنهار وأطلب الطلاق ، فكان رده عليهم هو أن قال لهم بكل غرور إننى لن أستطيع الحياة بدونه .

لقد خيب زوجى كل رجائى ودمر حياتى ، التى كان هو محورها ، حتى لم أكن أعرف فعلاً كيف أتصرف أو أفعل أى شىء دونه ، حتى فى شراء احتياجاتى الضرورية ، ولقد خيرته بينى وبين الأخرى ، التى قبلت به وهو زوج وأب لثلاثة أبناء ، فكانت كفتها أرجح من كفتنا مع أنها «واحدة» ، ونحن أربعة أفراد ! هم أنا وأبنائى الثلاثة المتفوقون ، الذين يحبون أباهم ويتعلقون به ويرونه الأب المثالى ، ومازالوا كذلك رغم ما حدث ، بل لعلهم ازدادوا له حبًا فى الفترة الأخيرة ؛ لأنه يلبى لهم كل طلباتهم واحتياجاتهم ، حتى أنهم لا يحتملون منى أى لوم لأبيهم فيما بينى وبينهم .

وبعد أن خذلنى زوجى ورفض هجر الأخرى طلبت منه الطلاق . .

لكنه رفض ذلك ، وطلب منى التروى والانتظار ، ووعدنى بالاستجابة لطلبى بعد فترة ، إذا أصررت عليه . . لقد اهتزت كل الصور أمامى ، وأصبحت لا أصدق أحدًا وأشك فى كل شىء .

فلقد دبر كل ذلك منذ عام وتحايل ؛ حتى لا أعلم بزواجه إلا بعد مرور هذا العام ، لكى يسقط حقى فى الحصول على الطلاق ، ولست أستطيع الذهاب إلى المحكمة ومواجهته فيها . . فأشر علىّ يا سيدى بما أفعل أنت وقراؤك ، فلطالما قرأت مشكلاتهم وتعاطفت معهم . . وجاء دورى الآن ليتعاطفوا معى ويقفوا بجوارى ، ولكنى أرجوك ألا تطالبنى بمحاولة استرجاعه ؛ لأنه لن يرجع بعد إصراره على أن أعرف بزواجه ليزيح عبء هذا السر عن صدره ، ولأنه لا يريدنى كزوجة ، ولا يريد أن يشتت مشاعره بين اثنتين كما كان يقول دائماً ، ويؤكد أنه لا يتصور أن ينقسم رجل بين امرأتين ، ووجهة نظره هى أن يتركنى لخدمة أولادى دون أجر بالطبع ، أفضل من أن يطلقنى ، وتصبح لى حقوق مادية واجبة الوفاء ، وهناك من هى الآن أحق بهذه الأعباء المادية منى ، وهى الزوجة الجديدة ، وأنا التى تحملت معه ظروف الحياة فى الغربة عشر سنوات ؛ حتى تحسنت أحواله وأصبحت له ثروة . .

إنى أتخبط يا سيدى . . وأنا إنسانة ضعيفة للغاية ، وأشعر أننى ضائعة ، وأقف فى مهب الريح ، ولا أدرى كيف تحجر قلب زوجى الذى كان ملاكًا من ناحيتى على هذا النحو ، وأعجب أن يحدث ذلك بسبب إنسانة تصغره بعشرين سنة ، واجتذبها إليه بريق المال والسيارة الفارهة والشباب الدائم ؛ حيث كان زوجى يزداد شباباً ، وأزداد أنا

ذبولاً ، مع أنى أصغره بسبعة أعوام . . فبماذا تنصحنى يا سيدى ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

ألمس فيها بين السطور يا سيدتى ما يوحى إلى بأنك سيدة طيبة الطلب ، ولكنك قليلة الخبرة بالحياة والنفس البشرية ، رغم ما تشغلين من منصب كبير فى الحياة العملية ، كما ألمس أيضًا ما يوحى إلى بأنك شخصية انفعالية ، تفتقد الصلابة النفسية وسريعة التأثر إلى حد التهيج العاطفى الشديد ، الذى يصل بك إلى مرحلة الإغماء ، كلما واجهت موقفاً عصيباً ، وإلى حد العجز النفسى عن مواجهة المواقف الصعبة والتعامل معها بما تتطلبه من ضبط للنفس وقدرة على التحكم فى المشاعر ، واتخاذ القرار الملائم . .

ولهذا فأنت تشعرين الآن بالضياع والانهيار التام أمام الموقف الذى تواجهينه الآن ، حتى لتشعرين معه كما لو كنت قد أصبحت ريشة خفيفة ، يتلاعب بها الهواء ، ولا تملك القدرة على التحكم فى نفسها وتوجيه مسارها إلى حيث تريد الوصول .

أما أسبابى لترجيح ذلك ، فهى نصيحة إخوتك لزوجك بأن يتكتم عنك نبأ زواجه من أخرى ، إشفاقاً عليك من مواجهة الموقف ، وهى نصيحة فريدة من نوعها ، من جانب إخوة لزوج أختهم فى مثل هذه الظروف . . وتزداد تفردًا حين تبدو ، وكأنهم لا ينكرون عليه ما فعل ، ولكنهم فقط يشفقون عليك من احتمال الموقف حين تعرفين بالخبر ! . .
وهو الموقف نفسه تقريبًا الذى اتخذوه حين تعمدوا إخفاء نبأ رحيل

والدتك عن الحياة عنك ، وأنت فى الغربةو«تأجيل» ما تحسبوا له من
اضطراب حياتك الشخصية ، حين تعرفين به إلى موعد الإجازة السنوية ،
فكان رد فعلك للخبر هو رفضك النهائى للعودة إلى الغربة مرة أخرى ،
والبقاء بمصر .

وعلى ضوء كل ذلك . . وعلى ضوء ما تروين فى رسالتك فى صدق
وتلقائية ، فأنت قد غمرت زوجك بطوفان من المشاعر المتأججة ، منذ
أن ارتبطت به حتى لتطلبين منه ـ ولما يمض على تعرفك عليه سوى أيام ـ
ألا يرجع إلى عمله لأنك لا تحتملين فراقه! . . ثم يجتمع شملكما فتحبينه
حبًا طاغيًا حتى لتعتقدين فى بعض الأحيان أنك تحبينه أكثر مما تحبين
أطفالك ، وهو أمر «فريد» آخر ، يتناقض أصلاً مع الطبيعة البشرية ،
ثم تدورين بعد ذلك حول فلكه، وتركزين فيه كل مشاعرك ، وتتأثرين
بكل ما يصدر عنه أو يتعرض له سلبًا وإيجابًا ، فتبكين لا إراديًا حين
يشكو من صداع عارض ، وتعرضين عليه أن تعملى عملاً إضافيًا حين
يشكو من أعباء الحياة ،وتعرضين عليه نقيض ذلك أيضاً ، وهو أن
تهجرى العمل نهائياً حين يشكو من انشغالك عنه !

فكيف يتفق ذلك إذن مع تبريره لزواجه بأخرى بأنك أنت من دفعتيه
لذلك بانشغالك عنه ؟

الحق أننى لا أرجح أن يكون دافعه لما فعل أنك قد تشاغلت عنه كما
يزعم . . وإنما أنك قد جاوزت حد الاعتدال الحميد فى كل الأحوال فى
حبك له ، أو حد «الوسط الذهبى » كما يقولون فى ارتباطك به واعتمادك

عليه نفسياً . . ورغبتك فى الالتصاق به والاستئثار به ، دون العالم
الخارجى كله ، حتى ضاق «طوق» الحب حول عنقه . . وضاق هو به
كما يفعل أحياناً من يغترون بحب الطرف الآخر لهم ، ويشكون من ذلك
ولو افتقدوا مايشكون منه لتهلعوا عليه . . ولكن لا عجب فى ذلك . .
مع النفس البشرية ، ولا غرابة أيضًا مع الحقيقة التى تقول لنا ان التطرف
فى كل شىء حتى فى الحب ، قد يؤدى أيضًا إلى نتائج عكسية ، أبسطها
استهانة المحبوب بمن يحبه ، واطمئنانه الغافل إلى أنه سوف يتقبل منه
كل ما يفعل ، ولو تألم له بعض الوقت .

ولأنك كنت تحملين لزوجك طوفانًا من المشاعر المتأججة . . فلقد
بالغت يا سيدتى فى التمحور حول زوجك . . وفى الرغبة فى الاستحواز
الكامل عليه ، فكثرت فى الغالب أسباب التشاحن بينكما؛ لأن المشاعر
المتأججة المتطرفة ، التى لاتعرف الاعتدال لا تقبل الأعذار أو النواقص ،
وتطلب « الكمال» دائماً ، والكمال فى مثل هذه الحالة هو استسلام
المحبوب التام لمن يحبه ، فلا يخطو خطوة بعيداً عنه ، ولو كانت لسبب
مشروع، ولا يتأخر عن العودة فى موعد الغداء ولو كان مرتبطاً بعمل ،
ولا يغادر بيته فى المساء ؛ لأن المحب يشعر بالضياع إذا لم يجده فى الجوار
. . إلخ .

وهكذا تتعدد فرص الصدام والكدر رغم «نبل» الأسباب ، وتكون
المحصلة النهائية هى افتقاد الطرف المحبوب للسلام والهدوء وحرية
الحركة ، خاصة إذا كان لا يبادل شريكته بعض هذا الحب الجارف . ثم
تأتى لحظة قدرية قد يقرر فيها التمرد على قيود الحب . . والاستحواز . .

والالتصاق الحميم . . ويرى أنه ليس سعيدًا بها ، مع أن غيره قد يتمنى بعضها . . ويفضل ما يسميه حريته والحياة الهادئة ، والحب المتعقل الذى لا يعكر صفو حياته ، ويرهقه بالقيود ودموع الحب وثوراته أيضاً .

ولا عجب أيضًا فى ذلك ، لأن الحب وحده قد لا يكفى أحياناً للحفاظ على الحياة المشتركة ، إذا لم يتسلح بالفهم وحسن الإدراك وبعد النظر والاستعداد للتسامح والتجاوز عن الهنات ، والاستعداد كذلك لإرخاء طرف الخيط للطرف الآخر؛ لكى يتحرك بحرية ، ويرجع إلى قواعده سالماً ، بغير أن يشعر بأنه مقيد بالسلاسل ، ولو كانت من ذهب الحب الخالص .

ومن عجب أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد قال لنا منذ ١٤ قرنا ما معناه :

أحبب حبيبك هوناً ما ، فقد يصبح بغيضك يومًا ما . . وابغض بغيضك هوناً ما فقد يصبح حبيبك يوماً ما . .

وإن هذا هو نفسه ما يقوله لنا علماء النفس المحدثون الآن من أن أخلد الحب ليس هو أكثره تأججاً والتهاباً وفوراناً ، لكنه أكثره نضجًا وعمقًا وفهمًا وتسامحًا وعزوفًا عن الأثرة وأنانية الحب . وليس معنى ذلك أننى أقر زوجك على ما فعل يا سيدتى ؛ فالخيانة تظل خيانة ولو تجملت بالمبررات ، والغدر سرًّا بشريك العمل يظل غدرًا ، ولو التمس له صاحبه الأسباب، ولقد كان ما تحملين لزوجك من الحب كافيًا وحده ، لأن يكون أمينًا معك منذ البداية . . ولأن يواجهك بما ينكره عليك ،

ويخيرك بين الاستمرار معه مع زواجه بأخرى ، وبين الحصول على الطلاق فى إطار من الجدية ، التى تقنعك بصدق عزمه على الزواج من أخرى ، وليس فى إطار التهديد الذى لا يحمل عادة على محمل الجد .

وتصورى هو أن غروره بحبك العظيم له قد هيأ له أنك سوف تقبلين بالأمر الواقع ، ولن تتمسكى بالطلاق بعد أن فوت عليك فرصة نيله خلال عام من زواجه ، وهو ما يفضله عادة كل من أنجب الأبناء ، ولا يرغب فى أعماقه فى أن تنفصل عنه زوجته بالطلاق ، إذا تزوج من أخرى، كأنما ينبغى للزوجة وحدها أن تكون أكثر إحساساً بالمسئولية عن الأبناء من الرجل ، الذى خصه ربه بالقوامة والمسئولية الكبرى عن أبنائه . .

غير أن ما جرى ليس نهاية الحياة مهما كان شقاؤك به . . ولابد لك أن تتماسكى وتستجمعى شتات نفسك ، لتتخذى القرار الملائم لك فى هذا الموقف، فأنت يا سيدتى تواجهين الآن ثلاثة اختيارات ، لا رابع لها : الأول هو قبول الأمر الواقع والتعايش معه . . ويتطلب هذا الخيار منك شجاعة الاعتراف بالعجز النفسى والعاطفى عن احتمال الطلاق ولو مرحلياً ، رغم ما يمثله ذلك من كمد وإحساس بالقهر والخذلان .

والثانى : هو رفض هذا الأمر الواقع ، والإقدام على تغييره بالحصول على الطلاق وسواء اخترت بعد ذلك التفرغ لأبنائك ، أو خوض تجربة حياة جديدة مع إنسان آخر ، ويتطلب هذا الخيار منك شجاعة مختلفة ، هى شجاعة الأخذ بزمام حياتك فى يدك ، والخروج من دائرة فلك

زوجك ، والقدرة على مواجهة الغد بغير اعتماد إلا على نفسك .

أما الاختيار الثالث فهو الاختيار الذى تحسبينه ميئوساً منه ، وهو محاولة استعادة زوجك ، و«الجهاد» فى سبيل ذلك . .

ولأن كل الخيارات مريرة ، وتتطلب عناءً نفسيًّا لا مفر منه ، فإن خيرها هو ما يستفيد منه أبناؤك ، ويعود بأفضل العواقب على الجميع إذا تكلل بالنجاح ، وهو اختيار «الجهاد» ، ولو لفترة زمنية معقولة ، قبل أن تسلمى باليأس النهائى منه ، فهو الاختيار المفيد لك فى كل الأحوال ، بغض النظر عما سوف يؤدى إليه من نتائج إيجابية أو غير إيجابية ، لأن من واجبك أن تبذلى كل ما تستطيعين من جهد لاسترجاع زوجك لكيلا تقصرى فى حق نفسك وأبنائك ، وتسلمى بالهزيمة والفشل من قبل بدء المباراة ، كما أنه فى النهاية اختيار مفيد لك نفسيًّا وعاطفيًّا وإنسانيًّا ، سواء حقق أهدافه أم أخفق فيها ؛ لأن ذلك يتطلب منك ماهو أكثر من البكاء على الأطلال والتحسر على انعدام الوفاء ، وهو أن تحاولى فهم أسباب شرود زوجك بعيدًا عنك ، رغم كل ما تحملين له من حب ، وأن تحاولى من خلال مراجعة حياتك وتصرفاتك معه فهم أسباب الخلل ، التى عجز هذا الحب العظيم عن إنقاذ الحياة الزوجية بسببها .

ولابد أن تؤدى مراجعتك للنفس وللحياة إلى إدراك بعض ما غاب عنك إدراكه ، واكتساب خبرة جديدة فى التعامل مع شريك الحياة . . فإن لم يؤد ذلك إلى استعادتك لزوجك . . فلسوف يكسبك فهماً أفضل للنفس البشرية وللحياة ، يعينك على تجنب الفشل فى تجربة المستقبل ، ويعيد إليك الثقة فى نفسك ، وفى البشر ، وفى الحياة .



أكتب إليك هذه الرسالة ، لعلى أجد فى ردك بعض السلوى وبعض النسيان ، فأنا يا سيدى من رجال التعليم ، عملت بحقله ما يقرب من أربعين سنة ، وأنجبت ستة أبناء قمت مع زوجتى بواجبنا تجاههم على أكمل وجه ، فأصبح منهم الطبيب والمهندس والمهندسة وخريج الحقوق ، واللغة العربية والتجارة ، ومضت رحلتهم جميعا موفقة وبلا تعثر والحمد لله .

وسهرت زوجتى بكل كيانها على رعايتهم وتربيتهم ، حتى كنا الأسرة المثالية ، على الرغم من الظروف المادية لأى موظف مثلى ، حتى بلغت سن المعاش بدرجة مدير عام ، وتم تكريمى ، وخرجت من الخدمة بشرف وذكرى طيبة ، منذ أقل من عامين .

وحمدت الله على أنى قد أنهيت عملى ، وأنا بصحة جيدة ، وبعد أن زوجت ثلاث بنات ، وتم تأثيث شققهن بالأثاث المناسب ، الذى أرضاهن وأرضى أزواجهن والحمد لله ، أما الابنة الرابعة ، فقد تم عقد قرانها على زميل لها ، بعد تخرجها وعملها بإحدى الشركات كمحاسبة . .

وبدأ مشوار الجهاز الأخير لآخر البنات ، بعد أن أقمت لها حفلاً للخطبة أرضاها وأسعدها ، ثم جاء دور دلوعة الأسرة ، وآخر العنقود لتعيش فترة خطبتها السعيدة ، ونعيش معها آخر مشاوير جهاز العرائس . . فكان طريقها ميسورًا ، وفتح الله علينا برزق حلال أكثر مما طلبنا ؛ لكى نعد جهازها . .

ولم أعجب لذلك ؛ وهى الابنة الطيبة البارة بأبويها ، والتى تسعى دائمًا لإرضائنا ، ولا تدع مناسبة ، دون أن تحضر لأحد أفراد الأسرة هدية ، ولا تترك فرضًا من فروض دينها ، أو من السنن ، أو تصوم ثلاثة أيام من بداية كل شهر عربى ، إلى جانب كل صيام التطوع ، وتقرأ القرآن يوم الجمعة . . وتختمه خلال شهر رمضان ، وكل ذلك ، وهى لم تكمل بعد الخامسة والعشرين من عمرها ، فضلاً عن ذكائها وحنانها وخدمتها للجميع ، بلا استثناء .

المهم أنها انشغلت مع والدتها فى إعداد الجهاز . . وكل يوم فى مشوار . . وكل يوم فى محل من المحلات ، وأمها لا ترفض لها طلبًا ؛ فاشترت لها كل ما طلبت من أجود البضائع ، ثم جاء عيد ميلادها ، الذى نحتفل به كل سنة ، واشترينا لها الهدايا ، وخرجت مع خطيبها فى المساء فى نزهة حتى منتصف الليل .

وفى صباح اليوم التالى رأيتها قبل خروجها لعملها ، وراحت تروى لى ولأمها عن الأماكن التى ذهبت إليها مع خطيبها فى عيد ميلادها ، ثم غادرت البيت مبتهجة وسعيدة إلى عملها ، ورجعت فى موعدها المعتاد ، وأخذت أمها فى حضنها عند العودة ، كالعادة . . ودخلت معها المطبخ

لتساعدها أيضًا كما تفعل كل يوم، ثم دخلت الحمام ، وأخذت حمامًا وتوضأت ، وخرجت مسرعة لتصلى الظهر ، قبل أن يؤذن للعصر ، وجلست تنتظر الاذان ، وهى تروى لأمها عن « الإنجاز » الذى حققته فى عملها ذلك اليوم بإنهاء آخر أعمال الميزانية ، حتى استحقت عنها من مديرها مكافأة مع زملائها .

ثم أذن العصر فى الثالثة وثمانى دقائق بالضبط ، فأدته ـ وطلبت من والدتها أن تعد هى السفرة وحدها ، ثم تدعوها إلى المائدة حين تفرغ من عملها ، ودخلت أمها المطبخ لتفعل ذلك فإذا بها تناديها : ماما . . ماما . . أحس بضيق فى صدرى ، وسألتها أمها هل تطلب لها طبيبًا فقالت لها : يا ريت يا ماما ، فطلبنا الطبيب ، وهو قريب منا ، فى الثالثة وعشرين دقيقة ، ولكن الحالة ازدادت سوءًا بسرعة غريبة ، فاضطربت وغادرت البيت لانتظر الطبيب فى الشارع ، وأمها تقبل يدها ، وترجوها أن تتحمل الألم إلى أن يأتى الطبيب ، ووصل الرجل بعد دقائق أخرى ، وصعدت معه إلى شقتى لأجد زوجتى تقف فى ذهول وتقول لنا : انتهى كل شىء ولا تبك . . وهدأ الطبيب روعها ، وقال لها إنه مجرد اغماء ، وجلس إلى جوار ابنتى وأجرى لها تنفسًا صناعيًّا وتدليكًا للقلب ، ثم نهض يائسًا ومتجهاً فى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة .

« لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين » . . فى الثالثة وثمانى دقائق كانت جالسة على السجادة ، تتحدث إلينا فى مرح وسعادة، وهى تنتظر أذان العصر . . وفى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة ، كانت بين يدى خالقها . . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا أستطيع ـ مهما

حاولت ـ أن أصف لك المأساة ، التى عاشتها أمها ، ومازالت تعيشها حتى الآن ، بعد مضى عام وبضعة شهور ، فبعد أن أفاقت من غيبوبتها ، التى استمرت ثلاثة أيام ، تحت إشراف الطبيب عقب ما حدث ، راحت تزور ابنتها فى مستقرها الأخير كل يوم لمدة سبعة شهور متتالية ، ودون أن يجف لها دمع ، حتى اصطحبتها معى إلى الحج ، لعل الله ينزل عليها سكينته عند بيته المحرم .

وفى جوار قبر نبيه ﷺ ، ذرفت زوجتى من الدموع فى هذه الحجة ما يعادل دمع العمر كله ، وهى الآن صابرة ، ولكن الفراق مرير يا سيدى ، ولقد وضعت كل نقود جهاز ابنتها فى صدقة جارية على الأيتام والمساكين ؛ لكى تشعر ابنتنا الغالية ، بأن كل ما اشترته أمها لها من جهاز ، قد وصل إليها هناك فى رحاب رب العالمين ، كما حرمت زوجتى على نفسها أى زيارة لأى صديقة وكذلك للعائلة ، وتضع صورة ابنتها أمامها فى غرفة النوم ، وفى العمل ، وفى حقيبة يدها ، ولا تتكلم إذا تكلمت إلا عنها . . ولا تحتمل أن ترى عروسًا تزف بالفستان الأبيض ، حتى ولو فى التليفزيون ، ولا تفكر فى خلع السواد ، وهى تعيش الآن على الأدوية المختلفة ـ وكل فرد من الأسرة ، يشعر بأن جزءًا من جسمه قد اقتطع منه ، وتعيش كما تقول لتدفع كل ما تركته ابنتنا وراءها صدقة جارية ، وقد اقتطعت منه جزءًا ؛ لكى تؤدى به الحج وتهب حجتها لابنتها الراحلة . . . يرحمها الله .

ولقد كتبت لك هذه الرسالة ، رغم ما تثيره من أحزانى تأثرًا برسالة «الأوقات العصيبة » للأب ، الذى فقد ولده منذ عام ونصف العام ، ومازالت زوجته غارقة فى أحزانها ، وترفض أن تستجيب لندائه لها ، بأن ترجع للحياة وتتجاوب معه فى الخروج والنزهات . . إلخ ، ولكنى أقول له إن أحزان الحياة كثيرة . . ولابد أن يأخذ زوجته بالرفق والصبر ، حتى تداوى الأيام جراحها ، وتعود إلى طبيعتها السابقة ، وأيضًا لكى أطلب منك يا سيدى أن تكتب كلمة لزوجتى ، تقول فيها لها إن ابنتها مع الخالدين فى الجنة ، لكى ترحم نفسها لأننا جميعًا فى حاجة إليها ، ولأنها أهم عضو فى الأسرة ، وكلمة أخرى لكل أبنائى ، الذين يقرأون بريد الجمعة بانتظام لكى تهدأ نفوسهم ، فأنا حزين من أجلهم جميعًا ، ومن أجل زوجتى على وجه الخصوص . . وعفوًا لما قد لا تستطيع قراءته من رسالتى ؛ لأن دموعى قد غلبتنى ، وأنا اكتبها لك ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ولكاتب هذه الرسالة أقول :

نعم الفراق مرير حقا يا سيدى . . ولولاه ما بكينا أعزاءنا الراحلين ، ولكان الأحرى بنا أن نودعهم إلى مستقرهم الأخير متجالدين ، راجين لهم رضوان ربهم ورحمته وحسن مآب ، ذلك أننا إنما نبكى أنفسنا فى الحقيقة ، وما فقدناه من بهجة الحياة برحيل الراحلين قبل أن نبكيهم ، أما هم ففى الرفيق الأعلى . . ومع الشهداء والأبرار حيث لا كدر ولا شقاء .

غير أنك لو راجعت يا سيدى، ما جرى فى ذلك اليوم العصيب؛ لتنبهت إلى أن ابنتك الغالية قد تأهبت للقاء ربها ، متطهرة متوضئة وفمها الطاهر مرطب بذكر ربها ، الذى كانت تناجيه فى صلاتها قبل

لحظات ، حتى لقد تذكرت ، وأنا أقرأ رسالتك الحزينة ، ما رواه ابن الجوزى عن أحمد أخى الأمام أبى حامد الغزالى ، عن يوم وفاته إذ قال :

«ولما كان يوم الاثنين وقت الصبح ، توضأ أخى وصلى ، وقال علىَّ بالكفن ؛ فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال : سمعا وطاعة للدخول على الملك ، ثم مد رجليه واستقبل ؛ أى توجه برأسه ناحية القبلة ، وانتقل إلى رضوان الله تعالى » .

وهكذا يرحل الأبرار يا سيدى ومنهم ابنتك الغالية بغير جدال . . يدخلون على الملك جل شأنه فى علاه . . ونبكيهم نحن فى ضعفنا وقلة حيلتنا ، وعجز قلوبنا عن التجلد ، أمام فراق الأحباء ، حتى ليحق أن يقال لنا ما قاله جان جاك روسو ، المفكر الفرنسى لزوجته عاتبًا ، وهى تبكيه فى نزعه الأخير :

ـ أتبكيـن لسعادتـى . . أتبكيـن لتلك السعـادة الأبـديـة ، التـى لا يستطيع أحد أن يعكر صفوها ؟

ولو أنصفنا لبكينا قليلاً ، وتجلدنا كثيرًا ولخففنا عن أنفسنا مرارة الفراق بتخيلنا لهم ، وهم فى الدرجات العلا فى حلل السعادة يرفلون ، ولقلنا لأنفسنا ـ كلما غلبتنا مشاعرنا ـ ما قاله من قبلنا القائل ، مخاطبًا أعزاءه الراحلين :

ـ فى ثنايا القلب أنتم لم تزالوا

ـ غيـر أنـــا صـابــــرون

ـ هيهات أن ننسى ، وإن طال المدى

ـ غيــر أنـــا صـابــــرون

« وبشر الصابرين » أيها الاب الحزين ، وأيها الإخوة الأوفياء ، أما أنت يا سيدتى الفاضلة المؤمنة المتصدقة . . فلقد عرفت أفضل السبل للتواصل مع ابنتك الغالية وهى فى سعادتها الأبدية ، فأرسلت إليها «جهازها » هناك فى عالمها الأفضل ؛ لكى يكون خير قربى لها إلى ربها ، وهى فى عليين ؛ وحيث لا ينفع أحد إلا عمله الصالح . .

وبعد أن ينفع عمله فى الدنيا إلا من ثلاث ، كما حدثنا سيد الخلق أجمعين ، صلوات الله وسلامه عليه ، وهى : صدقة جارية ، أو ولد صالح يدعو له . . أو علم ينتفع به من بعده . فهنيئًا لك ولها بما فعلت، ولكأنك تتأسين فيه بالسيدة خديجة رضوان الله عليها ، التى كانت تعطر الدينار ، قبل أن تتصدق به ، وتقول أن الصدقة تقع فى يد الله ، قبل أن تقع فى يد السائل ، وتجلدى يا سيدتى من أجل ابنتك الغالية ، التى قد لا يعكر عليها سعادتها الأبدية إلا اشفاقها عليك مما تعانين ، ومن أجل أسرتك ، التى أخلصت العطاء لها على مر السنين ؛ ومازالت فى حاجة إلى عطائك حتى النهاية ـ وعفوًا لعجزى عن الاستطراد ، أكثر من ذلك فى هذا الموضوع الأليم .

وعزاء لكم جميعا و ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

صدق الله العظيـم .



أنا سيدة جامعية ، اقترب من الخمسين ، وأعمل بمؤسسة إنتاجية ، تزوجت من ٢٥ عامًا من زوج جامعى يكبرنى بخمس سنوات ، ويعمل بإحدى المصالح الحكومية ، وقد تزوجنا زواجًا تقليديًّا بعد فترة خطبة قصيرة ، ولم نواجه مشاكل مادية فى إتمام الزواج ، ولكن قصر فترة الخطبة لم يتح لى تعرف شخصية زوجى جيدًا .

وبعد أن تزوجنا ، تبدت لى منذ الأيام الأولى بعض الملامح التى كانت خافية على ، فلقد اكتشفت أننى قد تزوجت إنسانًا منفردًا مع ذاته فى كل شىء ، ويصعب عليه ـ إن لم يستحل ـ أن يندمج مع أحد ، أو يتشارك معه فى شىء ، ولو كانت زوجته .

وقد ظهرت أول معالم هذه الشخصية ، حين أصر على أن تكون له منذ البداية غرفة نوم مستقلة به ، ولم أعارض رغبته هذه ، فبعض

الأزواج يفضلون ذلك ، ولا بأس به فى حد ذاته ، ولكنى لاحظت بعد ذلك أن غرفة النوم المستقلة ليست إلا مظهرًا واحدًا من مظاهر تقوقعه على نفسه وانفراده ؛ فلقد وجدته ـ بعد ذلك ـ يخصص لنفسه أدوات للمائدة لا يستعملها غيره ، وأوانى معينة للطهى ، يطلب منى إعداد الطعام له فيها بالذات ، دون باقى الأوانى ، وبحيث أضع دائما آنيتين للصنف نفسه من الطعام فوق موقد البوتاجاز : واحدة له ، والأخرى لى وحدى ، قبل الإنجاب ثم لى وللأبناء بعد مجيئهم ، مع أنه لا يطلب طعامًا مسلوقًا ، أو يلتزم بنظام خاص فى الأكل ، كما وجدته أيضًا يخصص لنفسه أوعية لحفظ المعلبات ، التى تخصه وحده فحتى الملح والبهارات والمخلل والشاى والسكر هناك دائمًا أوعية تخصه منها . . وأوعية أخرى تحمل الأنواع نفسها ، تخصنا نحن باقى أفراد الأسرة . وفى بداية الأمر دهشت لهذا « الانفراد » فى كل شىء ، لكنى راودت نفسى على التعود عليه بشىء من التنظيم، مادام لا يتجاوز مثل هذه الأشياء المادية .

لكن المشكلة هو إنه قد تجاوزها إلى ما هو أهم ، فلقد اكتشفت فيه إنسانًا عنيدًا «متسلطا» ، لا يقبل المناقشة على الإطلاق ، ويثور لأتفه الأسباب ، ولا ينتظر من الجميع إلا الخضوع لرأيه بغير مناقشة فى أى شىء ، وكل شأن من شئون الحياة ، مهما كان تافهًا .

وانزعجت لذلك ، ولجأت إلى والديه ، استعين بهما وأسألهما النصيحة ، فطلبا منى ـ وكانا طيبين حقًّا رحمهما الله ـ الصبر عليه ، على

أمل أن تتحسن أحواله بعد إنجاب الأبناء ، وكذلك أيضًا نصحتنى أمى . . فجاء الأبناء ، ومضت السنوات ، وأصبحت المشكلة هى أن يتآلف الأبناء مع هذه العزلة ، التى يفرضها والدهم على نفسه . . فنشأوا كأطفال ، يتصورون أن كل الآباء يستقلون بأنفسهم فى غرفٍ خاصة بهم فى مساكنهم ، وفيها كل ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ، دون باقى أفراد الأسرة ، وأنهم لا يشاركون الأبناء فى شىء . ولا يقبلون من الأبناء أية مناقشة ، لهم فى أى رأى أو اقتراح .

ولكن الأبناء كبروا بعد ذلك يا سيدى ، وتفتحت مداركهم وعقولهم ، وفهموا حقائق الحياة ، وأصبحوا يحتاجون لمن يقنعهم بما يريده منهم ، وليس من يأمرهم فقط دون شرح ولا إقناع . . فبدأت الاحتكاكات ، وازدادت معها عزلة زوجى ، وانفراده بنفسه ، فإذا ناقشه أحد أفراد الأسرة مجرد مناقشة عابرة ، أو تصرف أى تصرف يخالف رأى أبيه ـ ولو فى أتفه الأمور ـ ثار على مرتكب هذه « الجناية » ، وبدلاً من أن يناقشه فى تصرفه أو يبين له خطأه . . . فإنه يسترجع له على الفور ـ وبذاكرة فولاذية ـ كل أخطائه ومساوئه أو ما يعتبرها هو كذلك . ابتداء من يوم ميلاده بالنسبة للابن أو البنت ، ومن يوم زواجنا بالنسبة لى ، ويظل يسرد علينا قائمة المساوىء والأخطاء هذه لفترة ، قد تستغرق أحيانًا أربع أو خمس ساعات ، متصلة بلا استراحة للحظات ، وبعدها تهدأ أعصابه بعض الشىء ثم يرجع ؛ فيجمع « أوانيه » وعلب الطعام والشاى والسكر ، وأدوات المائدة وعقود الإيجار . . والأسهم

والسندات، وعقد شراء جرار زراعى يمتلكه، وكل الأوراق الخاصة بعمله ، ثم يدخل حجرته ويغلقها عليه بالمفتاح من الداخل . . وتبدأ فترة الانفصال التام عن كل أفراد الأسرة ، وليس عمن أثار غضبه وحده، ولسبب بسيط هو أنه حين سرد كشف المساوىء والأخطاء ، قد تناول جميع أفراد الأسرة بلا استثناء ؛ فتجدد غضبه منهم ، وتجدد أيضًا غضب من تناولهم فى هذا الكشف منه!

فإذا غادر زوجى حجرته للذهاب إلى العمل ، أغلق حجرته أيضا بالمفتاح إلى أن يعود إليها ، وينعزل داخلها مرة أخرى ، وطوال فترة العزلة هذه ينفصل عنا فى كل شىء، ويعد طعامه ويغسل ملابسه بنفسه ، وقد تستمر هذه العزلة أيامًا ، وقد تستمر أسابيع ، وأحيانا شهورًا ، ثم تنتهى بمشيئة الله وحده ، ودون تدخل من أحد ، لأن أى تدخل لديه من جانب الأهل والأصدقاء يزيد من عناده .

أما المشكلة الأخرى فهى أنه خلال هذه الفترة ، يتوقف نهائيا عن الإنفاق على البيت والأسرة والأبناء ، فإذا كان هذا الانفصال قد جاء بعد بداية الشهر بأيام . . فإنى أجد يدى خالية من النقود ؛ لأننى أعطيه مرتبى بالكامل فى اليوم الأول من الشهر ، وأواجه وحدى الحيرة مع تكاليف الحياة بقية الشهر ، ومعى ثلاثة أبناء فى مراحل التعليم المختلفة، والمؤلم أن هذا الانفصال قد يحدث فى بداية العام الدراسى ، أو فى أيام الامتحانات ، أو نحن فى أجازة بالمصيف ، أو وأنا مريضة .

وفى كل هذه الأحوال ، على أن أتصرف وحدى ، وأدبر نفقات حياتنا

فكنت ألجأ فى البداية إلى بيع بعض مقتنياتى الخاصة ، ثم لجأت بعد ذلك إلى بيع بعض مقتنيات الأسرة ، ثم لجأت مؤخرًا إلى الأهل والأصدقاء .

فماذا أفعل يا سيدى ، وكيف نتعامل مع زوجى خلال هذه النوبات الخاصة ، وقد ازدادت وتلاحقت ، وأصبحت فترات الهدنة بينها قليلة وقصيرة ؟

إننى لا أنكر أنه قد مرت بنا بعض فترات الهدوء النسبى القليلة ، ولكنه كان دائمًا الهدوء الذى يسبق العاصفة . .

وفى هذه الفترات يكون زوجى إنسانًا شبه عادى ؛ بل إنه كان أحيانًا يغالى فى الخوف على أولاده ومستقبلهم ، ويحاول مساعدتهم فى أداء واجباتهم المدرسية ، وما يثير عجبى حقًّا هو أين يذهب هذا الخوف على أولاده فى فترات الانفصال هذه ، فلا يبقى منه إلا خوفه المبالغ فيه على نفسه من كل شىء .

وهل تتغير مسئولية الأب ، تجاه أبنائه باختلاف رضاه أو غضبه عن أحد أفراد الأسرة، ولماذا يعتبر مجرد مخالفة رأيه فى أى تصرف تافه إهانة بالغة له ؟

لقد لجأت إلى إخوته فلم يستطيعوا معه شيئًا ، وقالوا لى إنه كان قبل الزواج دائمًا أنانيًا ومنعزلاً بذاته عنهم ، وقلما كان يندمج معهم .

فما هى حالة زوجى فى تقديرك ، وكيف نتعامل معها . . أو ليس من

الأفضل لهذا النمط من الرجال ألا يتزوج من الأصل ، وألا يرتبط بشريكة حياة لها الحقوق والواجبات نفسها ؟!

وهل تراني قد أخطأت حين التزمت بتقاليد أسرتي التي ترفض الطلاق ، مهما كانت أسباب الفشل واضحة ومؤكدة ، وهل ترى الوقت الآن مناسبا للطلاق ، خاصة وأن أبنائي قد أصبحوا شبابًا ، وأصبحت لهم أراؤهم وشخصياتهم المستقلة ، وسوف يصطدمون لا محالة بأبيهم ، مما قد لا يحمد عقباه ، ثم ما جدوى تمسكي أنا شخصيًّا بالشريك «المنفرد» بنفسه ، هذا ، وأنا في هذه المرحلة من العمر ومن ضروراتها أنس الصحبة والمشاركة ، وهو ما يفتقده زوجي من البداية ، وهل ترى أي أمل في استمرار هذه الحياة ؟

ولكاتبة هذه الرسالة أقول :

الزواج يا سيدتي سلوك اجتماعي ، وليس سلوكًا فرديًّا ، يستطيع الإنسان أن يمارسه وحيدًا أو بذاته ، والسلوك الاجتماعي بطبيعته يتطلب من الإنسان أن « يتقبل » وجود الآخرين ، ويسلم به وبحقهم في أن يقتربوا منه ، وأن يقترب منهم ، وأن يشاركهم معهم فيما لا يتعارض مع هامش استقلاليته ، وأن يتقبل مشاركة الآخرين له ، معترفا لهم هذا الهامش نفسه الضروروى من الخصوصية ، وأن يتعود العطاء لهم ، كما يتقبل الأخذ منهم . . والاتفاق والاختلاف معهم ، بغير أن يرى في ذلك إهانة شخصية لهم . .

وبغير ذلك . . فلا يكون الزواج زواجًا حقيقيًّا ، حتى ولو تجاور

الزوجان في فراش واحد ، وقد يكون هو الزواج الحقيقي ، إذا توافرت فيه هذه المؤهلات ، حتى ولو تباعدت بين الزوجين المسافات والبلاد .

والواضح من كلماتك ، هو أن زوجك من هؤلاء الأشخاص القليلين ، الذين يمكن أن يقال عن كل منهم أنه « مكتف بذاته » ، لا يحتاج إلى الآخرين ، ولا يسمح للآخرين بأن يحتاجوا إليه ، إلا في أضيق الحدود ، وهؤلاء الأشخاص المتوحدون مع الذات يصعب عليهم غالبًا الاندماج في الآخرين والعطاء لهم ، وإن لم يصعب عليهم في بعض الأحيان الأخذ منهم ، لأن من سمات هذه الشخصية كذلك الأنانية ، وتفضيل الذات على الجميع ، والمغالاة في تقديرها إلى ما يشبه التقديس ، ولأن الآخرين لا يتقبلون في العادة مثل هذه الشخصية ، ولا يرحبون بها . . فإن الأمر ينتهي بصاحبها غالبا إلى العزلة والانفراد بالذات «المقدسة» هذه ، مؤمنًا بأن الآخرين لا يستحقون صحبته ، أو مبررًا لنفسه نفور الآخرين منه ، ونفوره منهم بأنهم طامعون في الأخذ منه ، وهو ما لا يفضله إلا قهرًا أو اضطرارا ، ولهذا يندر أن تجد إنسانًا منعزلاً عن الآخرين ، وكارهًا لهم وسخيًا في العطاء لهم في الوقت نفسه ، سواء أكان هذا العطاء معنويا أم ماديا !

وأمثال هؤلاء يوجدون في مجتمعات بشرية من حولهم في العمل والشارع والبيت ، ولكنهم أبدا لا يندمجون فيها ، ولا يتبادلون الأخذ منها والعطاء لها القدر نفسه ، وإنما لابد أن يكون أخذهم منها أكثر من عطائهم الاضطراري لها ، وهم يتجاورون مع الآخرين في المكان نفسه ،

ولكنهم محصنون ضد الضعف البشرى ، الذى يدفع الإنسان للاحتياج النفسى للآخرين والرغبة فى أنس صحبتهم ، وتقديم قرابين العطاء المعنوى والمادى لهم ، لكى يقربوا منه أو يسمحوا له بالاقتراب منهم . .

ولأن الأنانية من سمات هذه الشخصية بالضرورة . . فإن الذات تصبح دائمًا هى محور اهتمامهم ، الذى يتخذ أشكالاً عديدة ، ابتداء من الخوف الشديد على النفس إلى محاولة تمييزها عن الآخرين ، ولو كانوا من أعزائه فى كل شىء ، ولو كان تافهًا ، وما حرص زوجك على الاستقلال بغرفة نوم مستقلة منذ البداية ، وتخصيصه لنفسه أدوات للمائدة وأوعية للطهى والملح والبهارات والشاى والسكر إلخ ، إلا تعبيرًا عن هاجسين قهريين ، يلحان عليه الأول : هو الرغبة فى تمييز الذات ، والثانى هو الخوف عليها من أخطار غير معلومة المصدر !

وقد يكون إعلانه الانفصال عنكم حين يختلف مع أحدكم ، وانعزاله بنفسه فى غرفة خاصة ، يضع فيها كل أوراقه وأوانيه وأدواته وطعامه وشاربه ، امتدادًا للتعبير عن هذا الخوف المرضى من أخطار مجهولة ؛ فهو يشعر بالأمان فى الأماكن المغلقة ، أكثر مما يشعر به خارجها ويجد فى غرفته المغلقة عليه بالمفتاح من الداخل ، مالا يجده من أمان مع الآخرين ، الذين « يعتمدون » على ذاته بالاختلاف معهم ، فيحميها من هؤلاء المعتدين بحجبها عنهم .

وكل ذلك شبيه ـ فى بعض جوانبه ـ ببعض الأعراض الفصامية المعروفة ، ولكن هيهات أن يقتنع هو بحاجته إلى استشارة الطبيب

النفسى . . ولهذا فإنى أعفى نفسى من نصحية لا طائل تحتها .

أما ثورته الضارية . . . حين يختلف معه أحدكم حول أتفه الأمور ، أو يتصرف أبسط تصرف على خلاف ما يراه ، فتفسيره غالبًا هو أنه كغيره ممن يغالون فى الاعتداد بالذات ، وفى تقديرها لا يفرقون بين ما يبدون من أراء ، وبين كرامتهم الشخصية ، ويخلطون بين الاثنين خلطًا ضلاليًّا خاطئًا ، ويعتبرون الاختلاف مع الرأى إهانة شخصية ، لابد لهم من ردها وعقاب مرتكبها .

ولأن صاحب مثل هذه الشخصية يكون غالبًا أعجز من أن يصمد للمناقشة المنطقية وإقناع الآخرين ، بما يراه صوابًا لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من ورائه . . . فإنه يثور عارمة على مخالفه فى الرأى ، ويعتبر نفسه فى معركة ثأرية معه ، فلا يناقش الرأى المختلف عليه ، ليثبت هو صحة منطقة ، وإنما يبادر بالهجوم على شخص خصمه ، وليس على رأيه أو تصرفه ، ويستدعى من الذاكرة الفولاذية بيانًا كاملاً « بمساوىء» هذا الطرف ، ويسردها عليه ، وعلى الجميع لإثبات رأيه فيه .

وهو ما يفعله زوجك للأسف معك ، ومع أبنائه ، وبنفس طويل قد تفتقدونه معه فى أى حوار مماثل ، حول الشئون العائلية الأخرى ، ولا غرابة فى ذلك ؛ لأن الأمر لم يعد أمر خطأ الرأى أو صوابه ، وإنما أمر رد اعتداء هذه الأسرة بكل أفرادها على ذاته وكرامته الشخصية وضرورة هزيمتهم ، تمهيدًا للانسحاب من الحياة الجماعية معهم !

فإذا كانت نوبات الانفصال هذه قد تزايدت فى الفترة الأخيرة ؛ فلأن الأبناء قد تفتحت عقولهم ومداركهم ، وتحددت معظم معالم شخصياتهم المستقلة . . وأصبحت لهم هم أيضًا أراؤهم ورؤاهم المختلفة ، وأصبحوا أكثر ميلاً للتمرد على المسلمات ، التى كانوا يسلمون بها فى طفولتهم . . فى الوقت نفسه ، الذى يفتقد فيه أبوهم المرونة الواجبة ، وهو الذى اعتاد ألا يخالف أحد إرادته فى أبسط الأشياء .

فإذا كان يعاقب من لا يملك له شيئًا ، إذا اختلفوا معه كإخوته والآخرين بالانعزال عنهم وعدم الاندماج فيهم . . فإنه يعاقب الأبناء الذين يخضعون لسلطة الأب بالانعزال عنهم كذلك ، ويضيف إلى العقاب المعنوى عقابًا أكثر تأثيرًا على حياتهم اليومية بالامتناع عن الإنفاق عليهم ، والكف عن الاهتمام بشئونهم ، كما لو كانوا غرباء عنه!

وإذا كنت تسألينني : هل من أمل فى استمرار الحياة مع مثل هذه الشخصية . . . فإني أقول لك أن الأمل الوحيد فى الاستمرار مرهون بأن تتقبلى زوجك ، كما هو ، وأن تتجاوزى عن عيوبه و«أطواره» الغريبة هذه ، وتتواءمى بقدر الإمكان معها ، وليس ذلك مستحيلاً ، لأنك قد جربتيه بالفعل ، وتجاوزت عن غرائبه وحدة انفعالاته وأنانيته وميله للعزلة والاستقلال بذاته فى كل شيء ، واستمرت الحياة بينكما ٢٥ عامًا كاملة ، فإذا أردت استمرار الحياة معه تفضيلاً لمصلحة الأبناء . . فلسوف تستطيعين ذلك ، إذا كففت عن محاولة تغيير هذه الشخصية ، تفاديت أشواك الاحتكاك بها بقدر الإمكان ، لكننى أنصحك فى هذه

الحالة بأن تتدبرى أمرك معه ؛ تحسبًا لنوبات الانفصال المفاجئة بعد أول الشهر ، فتطلبى منه أن يسمح لك بالاحتفاظ بمرتبك أو بمعظمه ، أو أقل للإنفاق منه على الأسرة والأبناء إلى جانب ما ينفقه هو عليها ؛ بحيث تتقاسمان المسئولية المادية ، مادام لا يقوم بها أو بمعظمها وحده .

فإذا « حَم القضاء » ، وجاءت نوبة الانفصال بعد بداية الشهر ، كان فى يدك ما يغنيك لبعض الوقت عن الاضطرار ؛ لبيع بعض مقتنيات الأسرة أو اللجوء للأهل والأصدقاء ، وإن كنت لا أفهم كيف يسمح رجل لنفسه بأن يحرم أبناءه وزوجته ، التى استولى على مرتبها بالكامل من الإنفاق الضرورى عليهم ، اتفق معهم أو اختلف !

فإن كانت قدرتك على الصمود قد استنفدت تمامًا ، ولم تعد لك طاقة بمزيد من الاحتمال ورغبت فى تغيير هذه الحياة ، فلن ألومك إذا فعلت ، وإن كنت أشك فى قدرتك على ذلك ، لسبب بسيط هو أنك أعلم من الجميع بزوجك ، وتعرفين جيدًا أن من كان يحرم أبناءه من احتياجاتهم المادية الضرورية ، كلما غضب من أحد أفراد أسرته، لن يتورع إذا انفرد بهؤلاء الأبناء دونك ، أو انفردوا به من أن يكرر هذا التصرف معهم وأنت بعيدة عنهم . . ولم تعد لهم قدرتك نفسها على تدبر الأمور ومواجهة هذا الموقف العصيب والنتيجة الحتمية هو أنك ستزدادين شقاء بمعاناة أبنائك معه . .

وقد تزداد هذه المعاناة عمدًا من جانبه لإيلامك على البعد ، عقابًا

على الانفصال عنه . . كما أنها سوف تزداد بالضرورة ؛ لأن أسباب الاحتكاك بينه وبين أبنائه سوف تزداد وتتضاعف . . وستكثر نوبات الاستقلال والانفصال، ولن يقف بين الأب وأبنائه، أم تحاول احتواء الموقف وتخفيف حدة الصدامات، وتذكير الأبناء بألا يخرجوا عن الأعراف والتقاليد المرعية مع أبيهم ، حتى ولو أخطأ فى حقهم . فكيف تتصورين الحال فى غيابك عن ساحة المعركة المتوقعة يا سيدتى ؟

إننى لا أرى المشكلة الحقيقية فى قدرتك على مزيد من الاحتمال ، ومواصلة إدارة دفة السفينة بحيث تتفادين المشاكل والصعاب ، وتصلين بالأبناء إلى شاطىء الأمان ، ولكنى أراها فى قدرة هؤلاء الأبناء أنفسهم على الاحتمال ، وعلى الالتزام بالآداب المرعية فى العلاقة العائلية بينهم وبين أبيهم ، وهذه القدرة لا أمل لهم فى الاحتفاظ بها وعدم فقدها ، إلا بوجودك بينهم ومعهم تحت المظلة نفسها .

وبالقرب من هذه الغرائب والعجائب . . فاختارى لنفسك يا سيدتى ما تشائين ، وما أحسب إلا أنك سوف تختارين ما يوحى إليك به قلب الأم وضميرها الحى ، وليس قلب الزوجة وحده مع تسليمى لك بكل ما ذكرت عن احتياجك النفسى إلى أنس الصحبة ، وشركة الحياة الحقيقية ، وليس فقط إلى مجرد التجاور فى المكان مع زوجك ، كما هو الحال الآن !

دموع الأب

أنا سيدة فى الثالثة والخمسين من عمرى ، تخرجت فى كلية عملية ، وأعمل بشركة مرموقة ، وتزوجت منذ ٣٢ عاماً من طبيب من أقاربى ، وقد تم الزواج بالطريقة التقليدية ، ولكننى أحببت زوجى خلال فترة الخطبة ، لما لمسته فيه من أخلاق كريمة وطباع مريحة ، وحب يفوق الوصف لى .

والحمد لله . . فلقد مضت رحلة العمر بحلوها ومرها ، ولم تتغير هذه الطباع ولا هذه الصفات حتى هذه اللحظة ، ويشهد الله أنى أحبه وأفضله على نفسى ، ولم أكن أرجو من الحياة أفضل منه . . وقد واصل هو تقدمه خلال رحلة العمر فى مجاله المهنى؛ حتى أحيل للمعاش منذ ٣ سنوات ، وهو مدير لإحدى مستشفيات الأقاليم الكبرى .

أما « المشكلة » ولابد من مشكلة لكل من يكتب إليك . . فهى أننى بعد زواجى بعام ، أنجبت أول أبنائى ، وكانت طفلة جميلة ، شاءت الأقدار أن يعطيها طبيب أطفال وعمرها ٩ شهور دواء مهدئاً تناولته

بانتظام لمدة عامين ونصف العام ، ظنا منه أنها تعانى الصرع ، لتعرضها لبعض التشنجات ، وهذه الفترة هى فترة تكوين المخ ، كما يقول لى زوجى ، وقد ثبت ـ فيما بعد ـ أن ما كانت تتعرض له من تشنجات ، وهى طفلة وليدة ، لم يكن يرجع إلى الصرع ، وإنما إلى الحرارة الداخلية غير الظاهرة للجسم؛ بسبب احتقان اللوز ، وحين اكتشفنا ذلك ، أجرينا لها ، جراحة لاستئصالها ، وعمرها ٤ سنوات . . . فلم تعاودها التشنجات منذ ذلك الحين .

ولكن ما تناولته من الدواء المهدىء ، أورثها نوعاً من بطء التفكير ، فوصلت فى دراستها إلى الشهادة الإعدادية بصعوبة بالغة ، وعجزت عن نيل الشهادة ، وتوقفت عن التعليم ، وتقبلنا نحن الأمر بواقعية ، ورضا بما قضت به المقادير .

وبذلت مع ابنتى هذه جهداً لا تتخيله ؛ حتى أصبحت فتاة يعتمد عليها فى أعمال المنزل كربة بيت ، وفى مجالات الحياةالعائلية الأخرى ؛ حتى لا تشعر هى بأى نقص بالنسبة لغيرها من الفتيات ، ولن أشكو لك ما شعرت به داخليًّا طوال هذه السنوات ، فهو أمر بينى وبين الله سبحانه وتعالى .

وبلغت ابنتى الحادية والعشرين من عمرها ، وهى بالمناسبة فتاة جميلة الشكل ، حلوة الطباع ، وطيبة لأقصى درجة تتخيلها ، فتقدم لخطبتها أحد أقاربنا من الشباب ، وصارحته أنا وزوجى بأن ابنتنا بسيطة فى كل شىء فى تفكيرها وفى تصرفاتها . فأجابنا بأن هذا بالضبط هو ما يريده فيمن يتزوجها ؛ حيث لا يريد سوى إنسانة بسيطة طيبة القلب

يحبها وتحبه بإخلاص ، وسعدنا بما قال ، وتمت الخطبة فى أمان ، واستمرت حوالى السنة ، وحرصت خلالها على أن أتيح لهما الفرصة الكافية ؛ لأن يجلسا معاً كثيراً شبه منفردين فى بيتنا ، وأن يخرجا معاً أيضاً كثيراً ليتحقق التفاهم بينهما ويتعرف هو كل جوانب شخصيتها . .

وقد تسألنى هنا : كيف وافقت على زواج الأقارب مرة أخرى ، وقد تتكرر مشاكله الوارثية ، كما قد يخطر لك أن تكون حالة ابنتى من أثر هذه العوامل الوارثية ، ولكنى أقول لك إن زوجى وهو طبيب ، لا يرجع حالة ابنتى إلى زواج الأقارب ، وإنما لما تعرضت له فى طفولتها ، كما أن هذا الشاب كان فرصة طيبة لابنتنا ؛ لأنها لا تخرج من البيت إلا معنا ، ولا صلات لها ، ولا وظيفة لها ، ولا شهادة دراسية ، وفرصها فى الزواج قليلة بالنسبة لغيرها ، فكان طبيعيا أن نرحب بهذا الشاب من أقاربنا . . وأن نتغاضى عن احتمالات المشاكل الوراثية لزواج الأقارب .

وتم الزواج بلا مشاكل . . . فإذا بابنتى تصدم فى زوجها صدمة العمر ، ويتبين لها ولنا أنه لا يصلح كرجل للزواج ، وأنه ما اختارها من بين كل الفتيات ، إلا لظنه بها أنها ساذجة ولن تفهم حالته ، ولن تكشف أمره ، وحين تبين له غير ذلك أساء إليها قولاً وعملاً ، واضطررنا إلى طلاقها منه ، بعد أربعين يوما فقط من الزواج ، وهى مازالت عذراء فى أغلب الظن ، وتجرعنا الألم النفسى مضاعفاً لذلك ، ولما تبين لنا ـ فيما بعد ـ من أن ذلك الشاب لم يكن يخلو أيضاً من أطماع مادية فينا ، كأسرة ميسورة الحال .

ولندع مشكلة ابنتى الحبيبة هذه جانباً بعض الوقت ؛ لأروى لك عن شقيقها الذى يليها فى السن ، فلقد أنجبته بعد أخته بخمس سنوات ، وجاء إلى الحياة طفلاً طبيعيًّا ، فرحنا به ، وتعلقت به آمالنا ، ثم أجرينا له ، وهو فى الثالثة من عمره عملية استئصال اللوز هو الآخر ، فبقى بعد الجراحة لفترة طويلة ، لا يفيق من تأثير البنج ، وأدركنا أنه قد أخذ جرعة بنج زائدة ، وبعد ذلك بدأت تظهر عليه هو الأخر آثار التأخر العقلى ، ولم يستطع مواصلة الدراسة لأكثر من الشهادة الابتدائية ، وحصل عليها بصعوبة أشد ، وفصل من السنة الأولى الإعدادية .

ووجدت نفسى أمام مأساة أخرى ، أشد إيلاماً ، وأشد صعوبة ، إذ ماذا أفعل معه ، وهو فتى وليس فتاة كأخته . وكيف يواجه الحياة بلا تعليم ولا شهادة ، وهو إن لم يجد ما يفعله ويشغل به وقته وطاقته . . . فقد تنفتح أمامه أبواب الانحراف .

وفكرت أنا وزوجى فيما نفعل ، واتفق رأينا على أن نتقبل الأمر الواقع بالرضا نفسه الذى تقبلنا به ظروف أخته ، وأن أتفرغ أنا بضع سنوات لإعداد هذا الفتى لمواجهة الحياة ، فنفذت التزامى على الفور ، وحصلت على إجازة من عملى دون مرتب ، وبدأت مع ابنى هذا رحلة الطواف بمراكز التدريب الصناعى بالشركات ، على أمل تعيينه فى إحداها .

ومررنا معاً بمكاتب التوجيه النفسى ، ومكاتب القوى العاملة للمعاقين ، حتى تمكنت بفضل الله من تعيينه بالشركة ، التى أعمل بها على آلة لتصوير المستندات ، ودفعته فى الوقت نفسه لممارسة الرياضة والتفوق فيها ؛ حتى تمكن بحمد الله من الحصول على ميداليتين فضيتين

فى الدورة الأوليمبية للمعاقين ، التى أقيمت بالقاهرة منذ ٥ سنوات ، وصقلت تجربة العمل والرياضة والبطولة شخصيته . .

وهو بالمناسبة محبوب جداً من زملائه ، ومن كل أعضاء النادى ، الذى نتردد عليه ، ويقول عنه الجميع إنه طيب وناصح وأخلاقه عالية ، كما أنه نظيف جداً فى ملابسه وفى سلوكه ، لكن الناحية الحسابية عنده ضعيفة ؛ ولهذا فهو يقبض مرتبه ويعطيه لى لأدخره له وأترك له بضعة جنيهات فى محفظته ، يتصرف فيها كما يشاء ، وكلما نفدت أعطيته غيرها . . . وهكذا .

ورغم مرورى بكل ما رويت لك عنه من هذه الظروف النفسية الأليمة ، فلم يهتز إيمانى بالله لحظة واحدة ، ولم أفقد الرضا بكل ما حملته إلينا أقدارنا ، واعتقدت دائماً ـ ومازلت أعتقد ـ بأن الله سبحانه وتعالى قد وهبنى هذين الملاكين ، ليكونا عكازىّ فى الحياة ، وطريقى إلى الجنة بإذن الله .

وبسبب هذا الرضا بالواقع والقبول به ، وهبنى الله الطفلة الثالثة ، التى حملت بها ، رغم معارضة أهلى الشديدة ، وجاءت بفضل دعائى لربى طفلة سوية ، حنوناً تكاد تكون الآن أما ثانية لشقيقيها من بعدى ، وقد بلغت التاسعة عشرة من عمرها ، وتدرس بكلية مرموقة ، وتتعاون معى فى توجيه أخويها ورعايتهما بحب وحنان .

هذه يا سيدى ظروفى ، التى أكتب لك عنها . . وقد اختزلت منها الكثير والكثير ، ولم أحك لك إلا أقل القليل عن معاناتى مع ابنتى وابنى هذين ؛ حتى تمكنت ـ بفضل الله ـ من أن أصل بهما إلى المستوى

الاجتماعى اللائق بهما سلوكاً وتفكيراً ومظهراً ، كما لم أحك لك أيضاً عما تعرضت له من بعض المواقف ، التى كان قلبى فيها يعتصره الألم ، ولا يدرى بى أحد ؛ لأن دموع القلب لا ترى بالعين المجردة ، وإن كانت أشد قسوة من دموع العين .

وكنت كلما واجهت مشكلة من هذه المشاكل ، توجهت إلى ربى بقلبى وناجيته بجماع نفسى ألا يتخلى عنى ، فكان بى - جل شأنه - رحيماً ، وصمدت نفسيًّا لكل ما عانيت ، ولكن الجسد لا يستطيع الصمود للنهاية ، كما قد تستطيع النفس ، وكانت ثمرة معاناتى هى مرضى بقصور الشريان التاجى والضغط والسكر ، كما مرض زوجى الحبيب بالضغط والنقرس ، مع أنى قد تحملت وحدى مسئولية هذين الابنين ، وتكتمت عنه دائماً كل ما استطعت تكتمه من مشاكلهما ؛ حرصاً على صحته ورحمة به ؛ حتى يظل لى السند الصامد والصدر الحنون الذى أحتمى به .

ولقد أديت مع زوجى فريضة الحج والحمد لله ، وتنبهت بعد انتهاء المناسك إلى أننى فى كل طوافى بالكعبة المشرفة ، لم أكن أدعو الله سبحانه وتعالى ودموعى تنهمر إلا بدعاء واحد ، هو : أولادى يا رب ! أولادى يا أرحم الراحمين .

ومن أجلهما أيضاً أكتب إليك الآن يا سيدى . . فكل أملى فى الحياة أنا وزوجى ، هو أن يتزوج هذان الابنان بمن يرعيان الله فيهما ، وتأمنهما عليهما بعد رحيلنا عن الحياة ، ونحن والحمد لله قادرين على أن نوفر لكل

منهما شقة الزواج ، وعلى مساعدتهما ماديًّا بقدر طاقتنا ، فهل أجد لديك من يحقق لى هذا الأمل الكبير ، ليس طمعاً فى الشقة أو المساعدة المادية ، وإنما أمل فى حياة كريمة شريفة لوجه الله تعالى ، ولوجه الخير والإنسانية ؟

ولكاتبة الرسالة أقول :

لو خير الإنسان بين أن يصاب فى نفسه ، أو يصاب فى ولده ، لاختار بلا تردد أهون الضررين عليه وافتدى بنفسه ثمرة قلبه . ولهذا . . فإنى أفهم جيداً يا سيدتى عمق آلامك . . ومشروعية آمالك بالنسبة لهذين الملكين ، اللذين جاهدت فيهما جهاد الأبطال والموعودين بجنات النعيم ، بإذن ربهم ، إن شاء الله .

أما وأنهما ملكان يسعيان فى الأرض ، فلاشك فى ذلك ولا جدال ، إذ لامراء فى أنه كلما اقترب الإنسان من فطرته ، التى فطره الله عليها ، كان أقل خبرة بشرور الحياة ، وأكثر بعداً عن الالتواء والخداع . . وزيف المشاعر .

حتى لقد قال الأديب الفرنسى أندريه جيد فى روايته الشهيرة «السيمفونية الريفية » إن من فقد بعض حواسه ، قد يكون أكثر سعادة من الآخرين ؛ لأنه لن يدرك كل صور القبح والشر فى الحياة ، ولن يسمح له خياله بأن يتمثلها ! ويقلدها ويتعامل بها مع الآخرين .

ولعل ذلك يفسر لك ما تلمسينه من طيبة هذين الابنين وفرط حنانهما بك وبالجميع ، وبراءة مشاعرهما وتسامحهما مع الآخرين ومع الحياة بصفة عامة .

فإذا كانت ابنتك قد صادفت حظًا عاثراً فى زواجها الأول ، فلقد كان من المؤلم حقًّا أن يستغل « الأصحاء » ظروف التعساء ؛ ليعوضوا فيهم نقصهم ، كأنما لم يكفهم ما امتحنتهم بهم أقدارهم . . .

ولكن ماذا نقول عمن لا يتورع عن استخدام تفوقه العقلى فى الشر ، فى إيذاء من لا يعرفون كيف يحمون أنفسهم من شرور أهل المكر والالتواء والخداع ؟

غير أن الحياة لا تخلو أبداً ممن يرعون الله فى سلوكهم مع الآخرين ، ويؤمنون دائماً بأنهم إذا لم يكونوا يرونه . . فإنه يراهم سبحانه ، ولا شك أن كثيرين وكثيرات قد يجدون فى ابنتك الشابة وابنك المحبوب هذا بغيتهم ، وما يحقق لهم آمالهم فى الارتباط بشريك، يتعامل مع الحياة بقلب مفطور على حب الآخرين ، وتصور الخير فيهم . . فإن افتقد مثل هذا الشريك بعض المقومات الأخرى كالقدرة الحسابية مثلاً ، أوحسن التصرف الاقتصادى ، فما أهون أن يعوض من يختاره النقص بخبرته هو وقدرته . . وما أصعب أن يعوض الإنسان فطرة القلب البرىء والحب الصادق والعشرة الطيبة بأى شىء آخر، إذا افتقدهما فى شريك الحياة .

وأما الاحتمالات الوراثية ، فما أسهل قطع الشك باليقين فيها ، عن طريق اختبارات العوامل الوراثية المتاحة لكل من يريد .

شىء واحد فقط ، أريد أن أتوقف عنده فى رسالتك يا سيدتى ، وهو رجاؤك ألا يكون من يتقدم إلى ابنتك وابنك مدفوعاً إلى ذلك بدافع الشفقة أو المساعدة المادية ، وأنا معك فى ذلك ، ولكن مع تعديل طفيف ، هو ألا يكون مدفوعاً إلى ذلك بهذين الدافعين ، « وحدهما » ، وأن نحكم نحن على مؤهلاته الأخلاقية والعائلية الأخرى بعد التسليم نفسيًّا بقبول هذا الهامش من الدوافع المادية ، فيمن يتقدمون إلينا ؛ إذ ماذا يعيبنا ـ فى مثل هذه الظروف الإنسانية ـ فى أن نعترف بهذا الهامش ، وفى ألا ننكره على الآخرين ، وألا نحكم به وحده على صدق رغبتهم فى رفقة الحياة الآمنة مع أعزائنا ، أو حتى ندين به وحده أخلاقياتهم . . بغير أن نلتمس لهم بعض العذر . . فيه من ظروفهم ومن قسوة الحياة على الجميع ؛ فالمهم أولاً وأخيراً هو ألا يتعارض هذا الدافع المشروع ، مع إخلاص الرغبة فى رفقة الحياة الآمنة مع أعزائنا . . ولا مع حسن العشرة معهم والرفق بهم .

ومن الأمانة مع النفس أن نعترف بهذه الدوافع كدوافع مساعدة ، وليست وحيدة لمثل هذا الارتباط ، الذى قد يقدم الحل العادل لمشاكل الطرفين ، وقد يكون بداية موفقة لرحلة هادئة وسعيدة فى الحياة .

وليت كل من يواجهون مثل هذه الظروف الخاصة ، بل وكل من يعانون مشكلة تأخر الزواج يتعاملون مع مشاكلهم بهذه النظرة الواقعية ؛ لكيلا يضاعفوا من تعقيدها بالنسبة إليهم ؛ حتى ولو لم تكن السعادة المثلى التى يطلبونها . . أو يرون أنفسهم جديرين بها . .

إذ ماذا يمنع أن يكون من مميزات الإنسان ، التى تغرى به الآخرين ، إلى جانب مزاياه الأهم ، قدرته على المساعدة فى حل مشكلة الزواج المادية ، وماذا يعيب الإنسان فى ذلك إن هو فعل . . ولماذا يصر البعض على أن يصعبوا على أنفسهم مشاكلهم بإصرارهم على أن يطلبوا لأنفسهم «الأحسن » و « الأفضل » وحده . .

وفى الإمكان أن ينالوا « الحسن » ، و « ما لا بأس به » بديلاً للخواء والعدم والانتظار إلى ما لا نهاية ؟

لقد قال بعض الحكماء إن الشيطان إذا أراد أن يضل إنسانا فإنه يحضه على طلب « الأحسن» ، ويوسوس له دائماً ألا يقبل بغيره ؛ لكى يكبده مشقة طلبه ، بدلاً من أن يدعه يحصل على « الحسن » و « المقبول» و«الممكن » فيجد نفسه بعد حين فى موضع أفضل قليلاً أو كثيراً ، مما كان عليه ، وهو متجمد عند موقف الانتظار اللانهائى طلباً للأحسن . .

وليس يعنى ذلك أبداً أن كل من سوف يتقدمون إلينا ، لن يحركهم لمثل هذا الأمر إلا الدوافع المادية وحدها . . وإنما يعنى فقط ألا ننكر نحن على أحد أن تكون مثل هذه الدوافع فى تقديره ، وهو يقترب منا إلى جانب المزايا والمؤهلات الأخرى ، كما يعنى أيضًا يا سيدتى أنك قد تعاملت مع المشكلة كلها من البداية بواقعية ، تستحق التقدير وبشجاعة نفسية تدعو للاحترام ، ولن يشق عليك أن تواصلى التعامل مع المشكلة بهذه النظرة الواقعية نفسها إلى أن تجد حلولها السعيدة والمرضية لك ولأسرتك بإذن الله والسلام .

الفهرس

***

دموع القلب

حين يبلغ الحزن مداه فى النفس الانسانية . . يقطر القلب دموعاً حزينة مؤسية . . ودموع القلب أكثر حرقة من دموع العين .

وها هى الدنيا من حولنا وقد كادت أن تمتلىء بهموم الحزانى الذين أضنتهم تصاريف الحياة . . حتى أصبحنا نتساءل : ماذا جرى للسلوكيات الانسانية بين الناس ؟ . . ولماذا تعقدت العلاقات الأسرية بين من تفترض فيهم أواصر المحبة والسكينة والتراحم وكل سمات العلاقات الطيبة ؟

● وفى هذا الكتاب مجموعة من رسائل المشاكل الأسرية العاتية التى طلب مرسلوها النصح فى كيفية مواجهتها ، فعقب عليها **الاستاذ الكبير عبدالوهاب مطاوع** بما أملاه عليه ضميره من حلول صادقة ، صاغها بأسلوبه الانسانى العميق ، داعياً الله لهم بأن تكون تلك الحلول عوناً لهم فى انفراج أزماتهم ، وإلهاماً لهم فى تحمل مشاق الحياة وصعابها ، وأملاً فى تجفيف ما يقطر فى قلوبهم من دموع .

« **الناشر** »



● نائب رئيس تحرير الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .

● حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام ١٩٩٢ كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .

● يكتب باب بريد الجمعة الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام ١٩٨٢ ، ويشرف على باب بريد الأهرام اليومى بصحيفة الأهرام .

● صدر له أكثر من ٢٧ كتابًا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصاً قصيرة وصوراً أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .

● له ثلاث مجموعات قصصية هى : « أماكن فى القلب » و « لا تنسنى » ، و« الحب فوق البلاط » .